رحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس

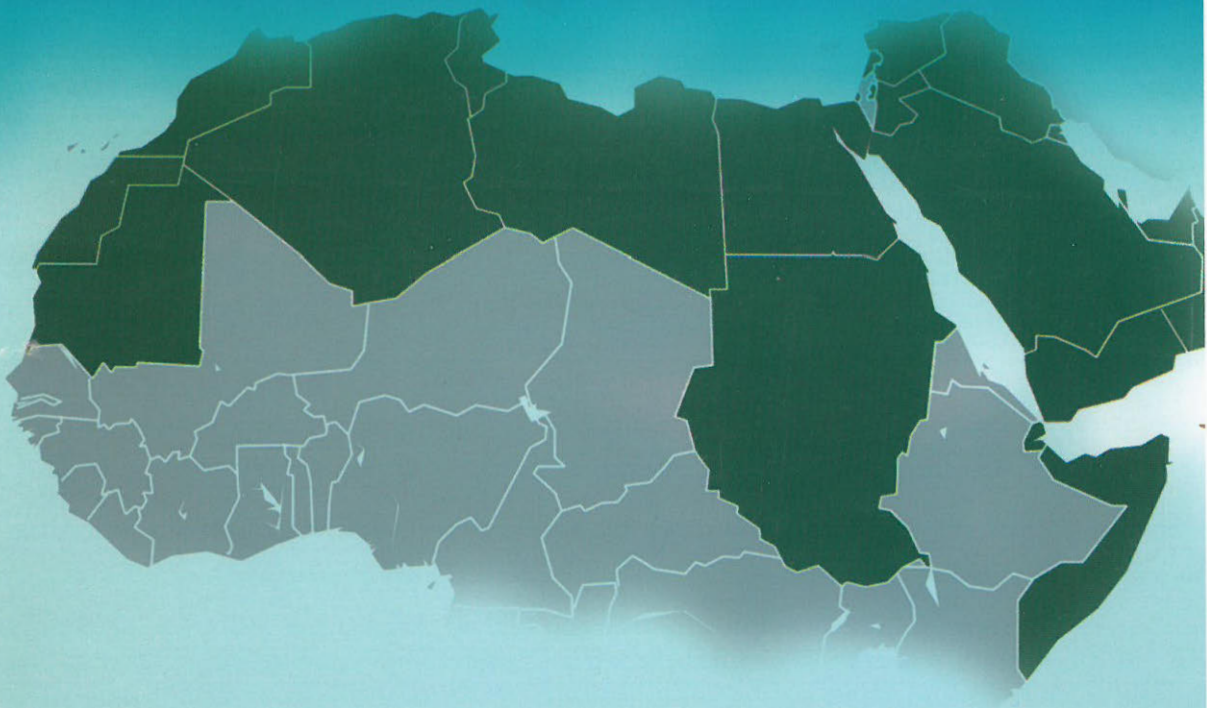

عبدالله بن حمد الحقيل

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م

عبدالله بن حمد الحقيل

رحلات ومشاهدات

في الوطن العربي والأندلس

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

ⓒ عبدالله حمد الحقيل، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، عبدالله حمد

رحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس / عبدالله حمد الحقيل.- الرياض، ١٤٣٤هـ

١٨٤ص ؛ ١٧×٢٤سم

ردمك : ٢- ١٢٥٦- ٠١-٦٠٣- ٩٧٨

١- العالم العربي -وصف ورحلات ٢- الأندلس-وصف ورحلات

أ. العنوان

ديوي ٩١٥,٦٠٤ ١٤٣٤/٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٤٩

ردمك : ٢- ١٢٥٦- ٠١-٦٠٣- ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير بقلم الدكتور عبدالعزيز الخويطر

عندما عزمت على كتابة مقدمة لكتاب: «رحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس» للأخ الأستاذ: عبدالله الحمد الحقيل، كان في ذهني أن أبدأ بالإشارة إلى الرحلات التي اشتهرت في الزمن القديم، مثل رحلة ابن فضلان، وما تلاها في القرون اللاحقة المختلفة حتى يومنا هذا، ولكني وجدت أن الأستاذ عبدالله – وفقه الله – قد سبقني إلى هذا في مقدمته، ولمسها بأسلوب معجب. وكان بالإمكان أن يكون هذا الجانب رئيساً فيما أذكره.

أما وقد سبقني الأخ عبدالله، وأخذ الكرة، وجرى بها نحو المرمى، وأصاب الهدف، فقد بقيت «وحدي أقلب طرفي في السماء». وعلى هذا فسأكتفي بالتطرق لبعض الحقائق، التي منها ما يكمل ما ذكره، ولبعض ما سيدور عن كتاب المؤلف نفسه.

أدب الرحلات أدب بديع، وفن راق، ونهج فكري مضيء، يغري بالتعمق في الفكر، والإبداع في المسلك، وهو جذاب أغرى كثيرين، فرحلوا وكتبوا، ومن لم يستطع منهم ذلك راح يحث من يقدر، وبإلحاح، ولم يضِع صوتهم هباءً، فقد جاء من صداه كثير من التجاوب، وتوفر حصيلة ثرة، نراها اليوم مسقط الاهتمام، ومرعى التقدير.

ما كتب من الرحلات لا يكاد يحصى، وأبرزها وصف الرحلات إلى بلد الله الحرام، ومهجر رسوله، المدينة المنورة.

وأهمية مثل هذه الرحلات أنها تمت بالتوالي، فأبرزت صوراً واضحة لعصور مختلفة، وصنفت الزمان والمكان وأهل المكان، وحالهم، ومعيشتهم، أمنهم وخوفهم، رخاءهم وجدبهم. يضاف إلى هذا ما يمر به الحاج من مدن وطرق، براً وبحراً، مُفَصِّلاً وصف ما مر به من سهل ووعر، وحوادث مما جرى به القدر.

إن من الجوانب المشعة في أدب الرحلات أنها تشبه المذكرات الشخصية، أو هي جزء منها، والمذكرات الشخصية، في رأيي، أقرب إلى التاريخ الصحيح الموثق المفصل، لما فيها من دقة في الوصف، واستيعاب جوانب مهمة لا يلتفت إليها أحياناً المؤرخ المعتاد، الذي يلقط نصّاً من هنا ونصّاً من هناك، ويلصق هذا بهذا، ويأتي في النهاية بحصيلة مشوهة ناقصة، ليس لها إطار يعطي الثقة فيها.

كتاب الأخ عبدالله شمل رحلاته إلى بلدان حدّدها، وجاء في حديثه عنها بصور جمعت بين المشاهدة والتاريخ والأدب، فجاء ما فيها غذاءً مغنياً، دل على سعة اطلاع، وتشرّب كامل لمسارب الأدب والشعر والتاريخ، ولا غرو فالأستاذ عبدالله مقيم في ربوع الفكر والثقافة، وألَّف ما يجعله في وسط ميدان المعرفة.

كل بلد زاره المؤلف، في نظري، يحتاج إلى أن يفرد له كتاب وحده، فما جاء الآن قليل، أعطانا فيه نماذج، ونحن نرثى إلى تفصيل أوفى، وظمأى إلى معلومات أكثر. نحن طماعون لا يكفينا أن نعطي قليلاً،

بل نطمح إلى الوافي الضافي، ما دام فيه ما يمتع من جوانب الفكر المختلفة، وتواريخ العصور المتوالية. وأرجو أن نرى هذا في يوم من الأيام، عندما يجد المؤلف الوقت. وهذا باب واسع يُدخِل إلى فضاء رحب.

إن ما كتبه الأستاذ عبدالله، مثل أمثاله من الكتب، مصدر للتاريخ في زمننا هذا مفيد؛ لأنه يضع صورة لما عليه هذه البلدان التي وصفها المؤلف، وهي في الوقت نفسه مصدر للمقارنة في المستقبل بين ما كانت عليه وما صارت إليه بعد النمو والتطور، وهما صفة هذا العصر.

وسيدهش الجيل اللاحق مما كان عليه الجيل السابق من حياة وسَيْر، وسيفكر في الإنجاز الذي يعيش وسائله، وما بذله سابقوه من جهد، وما أنفقوه من مال، وما قدموه من تضحية .

لهذا وغيره طلبت أن يخصص كتاب مستقل واف عن كل بلد زاره المؤلف، تُفصّل فيه الأسماء، ويحتوي على صور فوتوغرافية؛ لأن الصور الفوتوغرافية من أبرز وسائل التوثيق، وتوحي بكثير من الأفكار، والتصور الصادق، وتساعد على التحليل الدقيق.

الاستشهادات الشعرية جاءت في محلها، وبجانب هذه فهي تدل على قيمة الشعر عند المؤلف؛ لأن الشعر والمثل والحكمة مثبتات للأفكار، ومن دونها يكون الحديث مرسلاً، سرعان ما ينسى ويتلاشى من الذهن.

وحسن اختيار الأبيات الشعرية التي جاءت في موضعها المناسب، تدل، كما قلت، على سعة اطلاع، ومخزون ثرّ، يدق جَرَسه في مؤخرة

الذهن، فيأتي مُلبّياً الرغبة عند الحاجة.

وهي مَقْدِرة يُعطاها المرء هبة من الله – سبحانه وتعالى – .

من الأمور، التي تؤكد رغبتي في التفصيل، بعض الوصف للطبيعة ومظاهرها، مما يتطلع القارئ إلى المزيد منها، فمثلاً في صفحة (٨)، عندما اعتلى المؤلف مَطيّة الجو، مغادراً الرياض، نظر من النافذة فوصف السماء والأرض، وذكر المراعي والرمال والنخيل والخزامى والقيصوم والسدر والأثل والأقحوان، مستوحياً قول السابقين. إن هذه اللمحة لا تكفينا، ولا تشفي الغليل. نريد أن تُعقل المطيّة، وأن يوقف عند كل واحدة من هذه وقفة طويلة، ونحن نعرف المؤلف، وأن مثل هذا لا يجهده.

مثل هذه الرحلات لا تخلو من صعوبات ومشاكل، ولابد أن المؤلف قد مر بشيء منها، نريد أن نعرفها؛ لأنها تكمل الصورة، وتفيد من أراد أن ينهج هذا الطريق. وبعض القراء يجد متعة في قراءة هذه المآزق، وطريقة الخروج منها، أو الاستلام لها. ولا شك أن المؤلف قد مرّ بشيء غير قليل منها. ولعله – وفقه الله – يلتفت لهذا الجانب، ويكتب عنه بإسهاب مستقبلاً.

هذا ولا أريد أن أطيل حتى لا أُعيق القارئ من الإقدام على الوجبة الرئيسة.

والله ولي التوفيق،،،

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

٣/ ١٠/ ١٤٣٣هـ

مُقَدِّمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

أما بعد:

لقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كبير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعني به أعلام بارزون عبر أطوار الثقافة على اختلاف مناهج الرحل من أجناس العالم.

وفي قراءة أدب الرحلات متعة وفائدة ومعرفة وإحاطة بالعادات والتقاليد والاستمتاع بمشاهد التاريخ ومعالم الحضارات ومظاهر الحياة، وهو سبيل من سبل المعرفة، والثقافة الإنسانية كما أنه مصدر للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي وقد فطر الله الإنسان على حب الاستطلاع واكتشاف كل جديد ولا شك أن للأسفار مشقتها وبخاصة قبل تطور وسائل الانتقال لكن لها فوائدها.

وفي هذا الكتاب صور عن بعض رحلاتي إلى الوطن العربي، والأندلس في فترات متباعدة من الزمن ولمحات موجزة، وهي تشتمل في مجموعها على انطباعات وذكريات وهي ما يبقى للمرء بعد ذلك ولقد قيل:

سفر الفتى لمناطق وديار وتجول في سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع وتجارب ورواية الأخبار

ولقد حفل الشعر العربي بالكثير من القصائد التي تحث على

الأسفار والرحلات، وإذا كانت الرحلات فيما مضى عملاً شاقاً فإنها اليوم بفضل التطور الحضاري والتقنية الحديثة صارت عملاً مريحاً.

ولقد شكلت كتابات الرحالة مصدراً من المصادر التاريخية وقدمت سجلاً شاملاً ومادة علمية ساعدت الباحثين في التعرف على جوانب كثيرة من الحياة والتاريخ والجغرافيا، ولقد أمد الكثير من الرحالة الثقافة العربية بثروة فكرية وتاريخية وجغرافية.

ولقد نوه المؤرخ الرحالة عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨هـ) بأهمية الرحلات فأورد ذكرها في مقدمته الشهيرة إذ قال والرحلة لابد منها في طلب العلم واكتساب الفوائد والمعارف ولقد قال كعب بن مالك:

إن كنت تعلم أن الأرض واسعة فيها لغيرك مرتاد ومرتحل
فارحل فإن بلاد الله واسعة إلا ليسلك فيها السهل والجبل

وقال الشافعي:

مافي المقام لذي عقل وذي أدب من راحة فدع الأوطان واغترب

ويقول الحريري:

نقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذي يهوي به المطر

وهكذا يظل أدب الرحلات رافداً من روافد المعرفة والثقافة والأدب والتاريخ، وما زال الناس يذكرون ذلك البيت الشعري الذي حصر فوائد السفر بقوله :

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

ويضم هذا الكتاب رحلات قمت بها إلى الوطن العربي والأندلس الذي لا تزال أماكنه وذكراه عظيمة في ثقافتنا العربية، وأتركك أيها القارئ مع هذه الرحلات عسى أن تجد فيها من المتعة والمعرفة ما وجدته أثناء ترحالي في أرجاء تلك البلدان مردداً قول الشاعر:

في الذكريات وفي الترحال أشجان فيها من العلم والعرفان ألوان

عبدالله بن حمد الحقيل

في ربوع الخليج العربي

الرحلات سبيل من سبل المعرفة ومنذ مدة وأنا أترقب الفرصة لزيارة الخليج العربي إذ هو جزء من جزيرة العرب. مهد العرب ومهبط الوحي ومنطلق الإسلام ومهد الفصحى وموطن الشعر والفكر، وكم للشعراء والأدباء في ذلك من رصيد جم وقول رصين وبيان مشرق وذكر عريض ومجد أثيل فقالوا في ذلك نظماً ونثراً، وكانت حفاوة العلماء والباحثين والمحققين كبيرة جداً حيث كانوا يقطعون الفيافي ويجتازون المفاوز ويتعرضون للمتاهات ووعثاء السفر، ولا غرو فجزيرة العرب واسعة الأرجاء وتزيد مساحتها على ثلاثة ملايين كيلاً.

١ - الكويت:

وكانت أول رحلة قمت بها في يوم السبت الموافق ١٢/٤/١٣٩٧هـ وجدتها فرصة لتحقيق بغيتي فذهبت مبتدئاً بزيارة الكويت، وفي الصباح فارقنا مطار مدينة الرياض على متن إحدى الطائرات السعودية التي كانت تسير بنا بين شعاب نجد وأوديته وجباله وقممه الشاهقة ورياضه الجميلة مردداً قول أبي الطيب المتنبي:

إذا مضى علم منها بدا علم وإن مضى علم منه بدا علم

ولكم توحي تلك المناظر بتاريخ عريق وما تزخر به من ذكريات ومجد وخطوب وتاريخ خالد، وكانت الشمس في أوج إشراقها والسماء صافية الأديم تشرق على الهضاب والواحات والقرى والمراعي الخضراء والرمال والنخيل، الرمز الشامخ للجزيرة والخزامى

والشيح والقيصوم والسدر والأثل والأقحوان وغير ذلك مما كان يأخذ مكاناً بارزاً في روايات المؤرخين وفي قصائد الشعراء وأساطير الرواة وأخبار القصاص وأحاديث الرواة، تفتقت عن ذلك قرائح الشعراء العرب في جاهليتهم وتفجرت ملكاتهم وزخرت مواهبهم فتركوا تراثاً وعطاء هو أسمى ما وصل إليه شعرنا وأدبنا.

وما أكثر ما قال الشعراء في تلك المرابع حيث يقول الشاعر:

سقى الله نجدا من ربيع وصيف وماذا ترجى من ربيع سقى نجدا

وكنت أرنو لتلك الأودية والشعاب ومشاهدة تلك الهضبات مستعرضاً أقوال الشعراء كقولهم:

تمتع من ذرى هضبات نجد فإنك موشك ألا تراها

وكقول أحد الشعراء:

يشتاق قلبي إلى نجد ويطربه نسيم نجد إذا ما هب خفاقا
وأسأل البرق أحيانا فيطربني عنهم بما يملأ الأحشاء إحراقا
إن أومض البرق نجديا بعثت له سحا من الدمع مدرارا ومهراقا

وكقول الأمير عبدالقادر الجزائري:

وأسأل عن نجد وفيه مخيمي وأطلب روض الرقمتين ونعمانا

وكقول ابن خلدون:

يا أهل نجد وما نجد وساكنها حسنا سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أن ما قد مر ذكركمو إلا انتشيت كأن الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكمو شوقا ولولا كمواما كان يضنيني

وما أكثر ما قال الشعراء في ذلك، فهذه نفحات يسيرة مما قيل من أشعار في نجد وأوديته وقراه ومضاربه ورياضه – تنفست بها قرائح الشعراء وأتوا فيها بما يعجب ويطرب كامرئ القيس وطرفة وزهير وعنترة والحارث بن حلزة وأوس ابن حجر وجرير والفرزدق وغيرهم كثير.

وكان بجواري على المقعد أحد الشيوخ وتجاذبنا أطراف الحديث حول الأسفار فحكى لي قصصاً حول سفره على قوافل الإبل إلى الكويت ودبي ورأس الخيمة، وما مر به من المتاعب والمشقة.. سير متواصل في النهار واختفاء عن أعين اللصوص وقطاع الطرق في الليل، وفيما كنا نتحدث عن تلك الأيام إذا بالمضيف يطلب منا التهيؤ والاستعداد للهبوط في مطار الكويت والتفت لصاحبي وقلت له: إن الطريق ساعة واحدة بدلاً من ثلاثين ليلة «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» وكما ترى الأمن شامل والزاد متوفر في الأرض والجو، وهبطنا في المطار حيث كان النسيم يداعب خد الكويت رطباً نديا منعشاً، وبكل بشاشة من قبل المسؤولين في المطار انتهت إجراءات الدخول وتوجهت صوب أحد الفنادق في مدينة الكويت وحملت أمتعتي إلى إحدى حجراته وأخذت غفوة نهضت بعدها وخرجت أتجول في أسواقها، مدينة جميلة تبدو في زينة من مبانيها الشاهقة وتخطيطها البديع وشوارعها الواسعة وميادينها الفسيحة، ولبثت بها عدة أيام أتعرف على حاضرها وأتلمس مناظر قديمها واستمع لقصص من ماضيها.

ولكم حدثني الكثيرون عن حياتها القديمة حيث عاشوا فيها

فترة من الزمن وكانت لهم لطائف وذكريات، وتلفتت عيناي على تلك الأماكن والأحياء القديمة ومداخلها فوجدت يد التطور والنهضة قد امتدت إليها وحل محلها أحياء حديثة.

أمضيت في الكويت عدة أيام تمكنت خلالها من زيارة جامعة الكويت ومجموعة من المدارس الثانوية والابتدائية والمعاهد الخاصة ومتحف الكويت وبرجها الرفيع، كما قمت بزيارة للجهراء ولمينائي الكويت والأحمدي كما قمت بجولة في أحيائها مثل السالمية.. حولي المرقاب.. الرميثية.. الصليبيخات.. خيطان.. المرقاب .. الفحيحيل.. الشويخ.. وغيرها من الأحياء والأسواق العامة والمنتزهات.

وفي الكويت نهضة علمية وثقافية، ويصدر العديد من الصحف والمجلات منها اليومي والأسبوعي والشهري، وقمت بجولة في مكتبات الكويت وذلك بهدف التعرف على مؤسسات الثقافة والنشر.

وفي الكويت التقيت بالعديد من رجالها وعلمائها الأفاضل وبسعادة سفيرنا والملحق التعليمي وغيرهم من الإخوان السعوديين ممن استوطنوا الكويت فوجدنا منهم كل حفاوة ومحبة وتقدير.

٢ - البحرين:

ثم توجهت صوب البحرين وكان يسمى «أوال» قديماً فوصلناه ليلاً وأوينا إلى أحد الفنادق في المنامة في شارع واسع وعلى شاطئ البحر، وكانت تتناثر في خيالي ذكريات الماضي الخالدة عن هذه الجزيرة التي تمتد في التاريخ إلى أقدم العصور، ولتاريخ البحرين ذكر في المصادر التاريخية.

وفي الصباح خرجت لزيارة المسؤولين في وزارة التربية والتعليم ووضعوا لي برنامجاً لزيارة نماذج من المدارس المتوسطة والثانوية والابتدائية، وفي العصر خرجت لمشاهدة أسواق المدينة والتجول في شارعها الكبير، وفي العشية خرجت مع بعض الإخوان الذين حضروا لزيارتنا في الفندق فجلسنا على شاطئ البحر ورأينا البحرين تتلألأ، ثم ذهبنا لتناول طعام العشاء لدى الملحق الثقافي السعودي إجابة لدعوته ونعمنا لديه بلقاء الكثير من الإخوان السعوديين، من رجال الأعمال والمدرسين السعوديين والعاملين في السفارة السعودية وعدت إلى الفندق مشياً على الأقدام ولكم تذكرت ما مر به البحرين من تاريخ طويل عريض يشد الاهتمام:

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حال بعد حال

وفي البحرين أدباء وشعراء وصحيفتان هما البحرين، والوطن.

وفي صبيحة اليوم الثاني نظمت لنا وزارة التربية والتعليم رحلة إلى بعض جزر البحرين ثم قمنا بزيارة للمحرق والرفاع وبعض البساتين المجاورة والعوالي حيث تقوم أكبر مصافي النفط.

ثم زيارة لمصنع الألمونيوم، وانتقلنا بعد ذلك إلى المدرسة الفندقية ثم إلى المتحف لنرى آثار البحرين ولنشاهد عصوراً من التاريخ وبدائع من التراث والفنون آثاراً ومناظر تحكي زمناً طويلاً طوي في هذا المتحف الواسع الكبير:

كل حي على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حاد

ذهب الأولون قرنا فقرنا لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقي مآثر وأيادي

ومن البحرين غزا المسلمون وانطلقوا إلى بلاد فارس وفتحوا كثيراً من تلك البلاد بقيادة العلاء بن الحضرمي ورفاقه من أولئك الأسلاف الجحاجحة العظام الذين نشروا الإسلام فكانوا نوراً أومض في الظلام وعزماً واصلوا به الجهاد، ثبتوا به قدم الحضارة الإسلامية في تلك الأراضي التي اكتسبت شخصية الإسلام الروحية والثقافية والعلمية.

٣- قطر:

وفي الصباح الباكر برحت البحرين متوجهاً إلى قطر وكانت أشعة الشمس تموج مع البحر وتضفي على مياه الخليج روعة وجمالاً وتداعب أمواجه الهادئة، ووصلنا الدوحة بعد نصف ساعة من الطيران وبعد إنهاء الإجراءات في المطار أويت إلى فندق الخليج.. وهو اسم عربي جميل ولبثت في الدوحة ثلاثة أيام ولقيت خلالها من إخواننا القطريين كل حفاوة وتكريم.

ولقد تكرم الإخوان في وزارة التربية والتعليم بوضع برنامج حافل بالزيارات ابتدأ بزيارة كلية التربية وبعض المدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائية، ثم توجهنا في رفقة بعض الإخوان نبغي زيارة بعض العلماء والمشايخ فوجدنا البعض وكان آخرون في حضور مؤتمرات خارج البلاد.

وفي اليوم الثالث سرت لمشاهدة المتحف القطري وهو يمثل تاريخ قطر قديماً وحديثاً وبه آثار كثيرة وبنادق وآلات حربية ومناظر لبعض معالم قطر وشيوخها وأمرائها وأزيائهم القديمة إلى جانب بعض الخرائط المجسمة لصناعة الزيت.

ثم بعد ذلك قمت بزيارة لمكتبة قطر وقد حدثنا المسؤولون عنها بعد التجوال فيها عن تاريخها وعدد الكتب الموجودة فيها وأقسام المحفوظات والتحقيق والمخطوطات الموجودة بها وغادرت المكتبة شاكراً حفاوتهم واهتمامهم بالكتاب، فخير جليس في الزمان كتاب.

٤ - الإمارات العربية المتحدة:

ثم توجهت صوب دبي ورأس الخيمة والشارقة وعجمان وأبوظبي وأم القيوين والفجيرة وأمضيت بها بضعة أيام شاهدت خلالها ما تحفل به من تطور ونهضة وعمران ومناظر طبيعية وأماكن أثرية ومؤسسات ثقافية وعلمية ومكتبات عامرة، والاطلاع على تلك المدن والتجوال في ربوعها ومشاهدة معالمها كمدينة رأس الخيمة (جلفار) في الساعة التاسعة صباحاً من صباح يوم الاثنين الموافق ١٤٠٥/٦/٥هـ كان الاتجاه من مدينة الشارقة إلى إمارة رأس الخيمة ومررنا بإمارة عجمان ثم بلدة أم القيوين الواقعة على شاطئ الخليج وكان الطريق ممهداً يخترق صحراء واسعة خالية من الجبال وبعد مسيرة ما يقرب من مئة وعشرين كيلاً كان الوصول إلى مدينة رأس الخيمة وهي تقع في أرض منبسطة واسعة تكثر فيها الأشجار وتنتشر كثبان الرمال ومن أبرز شوارعها شارع الملك فيصل وقمت بزيارة

للمعهد العلمي التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وبه عدد كبير من الطلاب من الإمارات وعمان وبه مكتبة تحتوي على مجموعة من الكتب في مختلف العلوم وكان لقاءً طيباً مع أساتذة المعهد وخرجنا معهم في نزهة إلى الصحراء. وفي اليوم الثاني حضرت اجتماع المراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية والذي حضره عدد كبير من المراكز والجامعات واستمر لمدة ثلاثة أيام.

وقمت بجولة في المدينة القديمة جلفار التي كان لها ذكر كثير في الكتب التاريخية القديمة وتجولت مع الزملاء على ساحل المدينة حيث شاهدنا ما بقي من آثار البلدة القديمة ولقد سألت بعض المؤرخين عن سبب تسمية رأس الخيمة فقيل لي أن رأس البحر يشبه الخيمة في استدارته..

وبعد تمضية أيام في ربوعها غادرتها إلى أم القيوين التي تبعد سبعين كيلاً وهي تقع على الشاطئ وشوارعها فسيحة وبها معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ومنها إلى عجمان ويقال إن الاسم من اسم قبيلة العجمان ولقد رأيت الحدائق تنتشر في أرجائها إلى جانب الهدوء ثم ذهبت للشارقة لمشاهدة معرض الكتاب والذي نسقت أمكنة العرض فيه تنسيقاً حسناً والشارقة من أهم موانئ الخليج قديماً وحديثاً وأصبحت المدينة الثالثة في الإمارات وقد ازدهر فيها العمران والنشاط الثقافي والتجاري.

ثم ذهبت إلى دبي وأبو ظبي ومدينة العين متجولاً في رحابها ومعالمها التاريخية الحديثة .

وبعد فإن مدن الخليج اليوم تمثل نموذجاً فريداً للمدن الكبرى التي قفزت قفزات في التطور الحضاري.

حقاً فمنذ حللت في ربوع الخليج العربي لم أشعر أني اغتربت بل رأيت نفسي كأني في بلدي وبين إخواني، ولا غرو فنحن أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة متماثلة وعادات متقاربة.

وهذا ذخر يجب أن يصان ويحافظ عليه وإن الكتابة عن الخليج والجزيرة العربية يحتاج إلى كتاب مستقل فقد بلغت هذه الربوع أوجها في الماضي كما تثبت ذلك الدراسات الأثرية والتاريخية والجغرافية وقد خلد ذكرها في أقوال الشعراء والأدباء والعلماء ووصفها المؤرخون بأنها كانت ذات حضارة وازدهار ورقي، وزيارة هذا الجزء الغالي خيال يداعب كل من قرأ التاريخ وسمع عن تطوره المعاصر وسأحاول مستقبلاً أن أفرد لذلك كتاباً مستقلاً عن تاريخ الجزيرة بإذن الله ويتضمن الماضي العريق ومشاهد الحاضر المجيد والأصالة والأمجاد التاريخية.

ودام خليج العرب بالعز شامخا تضوع رمزا بالوفاء وبالمجد

إلى سلطنة عمان

في يوم الثلاثاء الموافق ١٤٢٢/١/٣٠هـ غادرت مطار الرياض متوجهاً إلى سلطنة عمان عن طريق دبي وذلك بدعوة من جامعة السلطان قابوس للمشاركة في الملتقى العلمي التاريخي لجمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون وقد فارقنا مطار الرياض على متن إحدى الطائرات السعودية التي حلقت بنا على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم وكانت تسير بنا في فضاء الله الواسع وكانت السماء مطرزة بالسحاب موشاة ببياض غيوم في مشهد بالغ الجمال والتأثير.. وسعدنا بمشاهدة شعاب بلادنا وأوديتها وجبالها وقممها الشاهقة ورياضها الجميلة .

ولقد أوحت إليَّ المناظر والواحات والنخيل والنباتات بما ذكره الشعراء والمؤرخون وأساطين الرواة وما أكثر ما قال الشعراء في تلك المرابع مما تنفست به قرائح الشعراء وأتو فيها بما يعجب ويطرب.

وكان بجواري على المقعد أحد الإخوان ممن كان يسافر إلى دول الخليج في القديم والحديث فحكى لي قصصاً حول أسفاره إلى دبي ورأس الخيمة وسلطنة عمان بالسيارات وأدرك مع والده بعض رحلاته على قوافل الإبل وما مر بهم من المتاعب والمشقة وفيما كنا نتحدث عن تلك الذكريات إذا بالمضيف يطلب منا التهيؤ والاستعداد للهبوط في مطار دبي، وهبطنا في مطار دبي مع مجموعة من الزملاء من أساتذة التاريخ والآثار في جامعتي الملك سعود بالرياض وجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية وتجولنا في ربوع المطار ومبانيه الشاهقة وسوقه الحرة حيث كان لدينا متسع من الوقت ثم ذهبنا نتجول بعض الساعات في ربوع دبي ومعالمها وبحرها وميادينها وأسواقها.. ثم عدنا للمطار لمواصلة الرحلة إلى مسقط على الخطوط العمانية وصعدنا إلى الطائرة متذكراً الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض وصاحب كتاب العين وابن دريد صاحب كتاب «الجمهرة» والشاعر المشهور وأبي العباس المبرد صاحب كتاب «الكامل» ولقد كانت تسمى قديماً «بمزون» كما ورد في قول الشاعر العماني:

إن كسرى سمى عمان مزونا ومزون يا صاح خير بلاد

بلدة ذات زروع ونخيل ومراع ومشرب غير صاد

وذكرت قول شاعرهم الذي وفد مع قومه إلى رسول الله ﷺ قائلاً قصيدة طويلة منها:

إليك رسول الله خبت مطيتي تجوب الفيافي من عمان إلى العرج

فصرنا نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب والشعر وخطبة أبي بكر في أهل عمان وإمارة عمرو بن العاص فيها وأقوال الجاحظ وهكذا كنا في حوار علمي حتى هبطنا في مطار مسقط وكان في استقبالنا مجموعة من المسؤولين في جامعة السلطان قابوس بكل ترحيب وبشاشة، من قبلهم قاموا بإنهاء إجراءات الدخول وجمع الحقائب والتوجه إلى الحافلة المعدة للتوجه بها إلى فندق «مسقط إنتركونتنتال» وفي الفندق وجدنا من الإخوة كل الترحيب والتقينا بعدد من الزملاء من أساتذة الجامعات في كل من البحرين والكويت

والإمارات وقطر وعمان واستلمنا مفاتيح الغرف ووزعوا علينا برنامج الحفل وجلسات الملتقى العلمي وفي صباح يوم الأربعاء ١٤٢٢/٢/١هـ توجهنا صوب جامعة السلطان قابوس إلى قاعة المؤتمرات لافتتاح الملتقى العلمي التاريخي في رحاب الجامعة وتحت رعاية صاحب السمو أسعد بن طارق ال سعيد (أمين عام اللجنة العليا للمؤتمرات) أقيم حفل الافتتاح بحضور عدد من أصحاب السمو والمعالي والسعادة وجمع من الشخصيات الأكاديمية ذات الاختصاص وجمهور كبير من الحضور، وفي بداية الحفل تُليَتْ آيات من القرآن الكريم ثم ألقى نائب رئيس الجامعة كلمة بهذه المناسبة شكر فيها صاحب السمو راعي المناسبة على تفضله برعاية حفل الافتتاح ورحب فيها بأعضاء جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون وقال إن هذا الملتقى يأتي إيماناً بضرورة التواصل العلمي مع كافة القطاعات من أجل نشر رسالة الجامعة وأهدافها السامية في خدمة العلم وأداء الرسالة البحثية وأن استضافة الجامعة لهذا الملتقى في رحاب السلطنة وعلى أرضها يدل على اهتمامها بالتراث والتاريخ وضرورة الارتكاز عليهما في كل خطة تنموية وفي ختام كلمته دعا المشاركين إلى الخروج بنتائج مفيدة تكون مبنية على أساس علمي راسخ لأن هذه المنطقة كانت ومنذ فجر الإنسانية مبعث الحضارة.

بعد ذلك ألقى الدكتور عصام الرواس رئيس اللجنة التحضيرية للملتقى ونائب رئيس جمعية التاريخ والآثار كلمة وجه الشكر من خلالها إلى المسؤولين في الجامعة وأشار إلى عدد من البحوث التي

بلغت ٣٣ بحثاً وقد بلغ عدد المشاركين أكثر من ١١٠ مشارك من خارج عمان وهذه البحوث تعالج العديد من القضايا التاريخية والأثرية التي تتعلق بتاريخ المنطقة ودولها عبر مختلف العصور بعد ذلك قام وألقى رئيس جمعية التاريخ والآثار من المملكة العربية السعودية بإلقاء كلمة الجمعية، وبعد ذلك قام صاحب السمو راعي الحفل بإلقاء كلمة أشار فيها إلى ما تتمتع به مواضيع التاريخ والآثار من أهمية ومن الممكن للباحث الاستفادة بما يشاء من هذا العلم الموثق من عبقرية الأجداد وما وصفوه من أحداث كللت لهم النصر وتركت لنا العزة والفخار والحكمة التي نستمد منها الصبر والتحمل وأكد على المكانة التي يتمتع بها التاريخ قائلاً أن التاريخ ومع أنه علم الماضي إلا أنه حاضر نابض بالحياة نستمد منه إرشادات حياتنا العلمية.

ولما جاء الإسلام عزز الكثير من القيم والمفاهيم العربية فأنتج حضارة ثقافية وفكرية عظيمة وإن هذه الأحداث التاريخية والوسائط الأثرية والآثار الشاخصة وعاء فكري وثقافي لنا وللأجيال القادمة.

لقد كان حفلاً ثقافياً شائقاً اتسم بالاهتمام ورفد المسيرة الأخوية وتقدير المؤرخ العربي والاعتماد على المنهجية التاريخية حتى يستطيع المؤرخ أن يكتب تاريخاً حقيقياً بعيداً عن التأثيرات، وبعد الحفل وأداء صلاة الظهر انعقدت الجلسة الأولى حيث خصصت الجلسة الأولى لنقد التاريخ وتناول منهج البحث التاريخي وكذلك الحديث عن المسؤولية التاريخية التي تقوّم تاريخ المنطقة بطريقة علمية وأكاديمية.

ولقد اشترك في الجلسة الأولى عدد من العلماء المختارين ممن لهم عناية بموضوعها ، وقد تحدث الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري عن «ثمود والثمودية» كما تحدث الأستاذ الدكتور معاوية إبراهيم عن تاريخ البحث الأثري في الخليج العربي (عرض نقدي).

واستعرض الدكتور عبدالله الشارخ إعادة النظر في تقسيمات العصور الحجرية للمملكة العربية السعودية وتحدث الدكتور عبدالملك التميمي عن أهمية نقد الكتابات التاريخية المعاصرة، أما الدكتور عبدالله إبراهيم العسكر فقد تحدث عن النقد التاريخي، وأما الدكتور سليمان الرحيلي فقد دعا إلى منهج توثيقي موحد في الدراسات التاريخية في دول مجلس التعاون.

لقد كانت الجلسة الأولى حيوية وصاخبة بالنقاش العلمي والجد والحماس على النهوض بحركة البحث العلمي التاريخي والآثاري في بلداننا وعلى ترسيخ أسس التعاون والتآخي والتلاقي وتوثيق عرى المحبة والتكامل بين دول المجلس على مختلف الأصعدة ثم توجه الجميع بعد ذلك إلى قاعة الطعام بالجامعة لتناول طعام الغداء ثم التوجه إلى الفندق واستئناف الجلسات في قاعة الفندق حيث كانت جلسات مسائية وصباحية لمدة يومين تحدث فيها عدد من الإخوة عن العصور الإسلامية والعصور الحديثة والمعاصرة وعصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة وقضايا تاريخية وأثرية مع ما صاحب ذلك من مناقشات ومداخلات وتقديم الجديد في حقل الدراسات

التاريخية والآثارية.

لقد كانت فرصة طيبة للتعرف عن قرب على عمان ومكانتها التاريخية ومكنونها التراثي وآثارها القائمة وعلى إنجازات نهضتها المعاصرة وخاصة أن هناك مجموعة ليست قليلة من الزملاء أعضاء الجمعية من المتخصصين في الدراسات العمانية وفئة أخرى مهتمة بآثار وتاريخ عُمَان، وهناك أوراق وبحوث قدمت في هذا الملتقى كان لها أثرها في إثراء دراسات التاريخ بمنطقة الخليج العربي.

ولا شك أن مثل هذه اللقاءات العلمية تعضد المسيرة الخيرة نحو الالتقاء والاتفاق التي تنتهجها دول المجلس وأبناؤها على مختلف الأصعدة حيث يساعد على تقريب وجهات النظر وتوحيد الآراء في المسائل العلمية وفي تفعيل البحوث والدراسات المشتركة عن المنطقة وآثارها وإثراء البحوث والدراسات.

ولقد سبق لدارة الملك عبدالعزيز بالرياض أن استضافت هذا الملتقى في العام الماضي، كل ذلك يدعونا إلى الأمل والتفاؤل بالمزيد من العطاء وصولاً إلى ترجمة الأفكار وتحقيق الآمال الكبيرة والإنجازات البحثية التي تخدم تاريخ المنطقة وآثارها.

وبعد أن انتهت تلك الجلسات العلمية كانت فرصة للقيام بزيارة بعض المكتبات والقلاع والمدن والحصون والمتاحف وبعض الأسواق الشعبية وانطلقنا في صباح الخميس الساعة الثامنة صباحاً لزيارة المدينة التاريخية «نزوى» التي تبعد عن العاصمة مسقط ١٦٠ كيلاً.

ومررنا بعشرات القرى والبلدان وفي (نزوى) قمنا بزيارة قلعة

نـزوى ثم سوقها وتجولنا في ميادينهـا وآثارها ثم توجه الجميع نحو قصـر صاحـب السمـو السيـد أمين بن طـارق ال سعيد لتنـاول وجبة الغـداء بقلعـة البشائر ولايـة آدم ولقد كان حفلاً بهيجـاً ولقاءً أخوياً وديـاً تخللـه كرم مضيفنا وكان برنامجاً حافـلاً حيث كان على جانب مـن الخلـق والأدب وصرنـا نتجـاذب مـع سمـوه أطـراف الحديـث في التاريـخ والأدب والشعـر والـتراث والآثـار فـكان لقاءً ممتعـاً ومفيداً وفي نهايـة الحفـل طلب مني الإخـوة التحدث باسمهـم فكانت فرصة طيبة للحديث لشكر سموه على كرمه وحفاوته وللجامعة لاحتفائها بانعقاد هذا اللقاء العلمي في رحابها.

هـذا اللقـاء الذي يتضوع بهذا الجمع الميمـون وتنعكس عليه هالة العلـم والمعرفـة حيث التقينـا بكوكبة من رجـال التاريـخ ورواد الآثار الذيـن أمتعونـا بعلمهـم وفضلهـم وزاد تجاربهـم وما أسهمـوا به من دور بـارز في هـذا المجال وقـد أحسنت الجمعية التاريخيـة صنعاً بهذا التوجه الحضاري والإدراك الواعي لجسامة الدور الملقى على عاتقها مـن دراسة التاريخ وتراث الأمة عن طريـق هذه اللقاءات لبث الوعي والنور والمعرفة والخروج منها بما نتطلع إليه من فائدة بإذن الله.

ثـم أنشـدت بعض الأبيـات الشعريـة مما أوحـت به هـذه المناسبة التاريخية ومطلعها:

مـن الرياض ومـن بدر ومـن أحد جئنا لمسقط أرض المجد والأدب

ومن تكـن شـعلة التاريخ رائده يكتب صحائفه بالصدق والحدب

ولنسعد اليوم بالتاريخ ندعمه بالجد والبحث عن عزم وعن كثب

إن المؤرخ في صدق وفي ثقة هو الحفيظ على الأمجاد والرتب

وهي طويلة.. وفي آخرها أقول:

تحية لجميع الصحب مفعمة بالود والحب من نزوى إلى خلب

و«خلب» موضع في جنوب الجزيرة قرب القنفذة على حد قول الزميل الدكتور سعد الراشد وكيل وزارة المعارف لشؤون الآثار والمتاحف.

وبعد وداع سموه والحاضرين ذهبنا لزيارة حصن الشموخ ثم تناول المرطبات بفندق «نزوى» والعودة إلى العاصمة مسقط. وفي المساء خرجنا في جولة لبعض المعالم والأسواق وأهم معالم مسقط السياحية (قلعة الجلالي ومتحف التاريخ الطبيعي)، حيث كان الجو رطباً نديا منعشاً خلال أمسية تغمرها البهجة والإشراق والأخوة.

وبعد تمضية أيام جميلة غادرنا عمان والنفس مفعمة بشتى الانطباعات والذكريات الجميلة وحافلة بالفائدة والمتعة.

رحلة إلى صلالة

الرحلات من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية، وفي صبيحة يوم الخميس الموافق ١٩ من رجب ١٤٣١هـ غادرت الرياض على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية العربية السعودية متوجهاً نحو صلالة في عمان وكنت خلال الرحلة التي استمرت زهاء ساعتين استعرض عمان وتاريخها ومعالمها وعلماءها وآثارها، ثم قطع على تلك الذكريات صوت مذيع الطائرة بالاستعداد للنزول في مطار صلالة، وكنت أشاهد الجبال الشاهقة وبحر العرب يحيط بها من كل جانب، فعمان موقع متميز في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية تطل على ساحل يمتد أكثر من ١٧٠٠كيلو، وفي المطار رأيت الإخوة العمانيين في منتهى اللطف والبشاشة والترحيب، وغادرت المطار متوجهاً صوب فندق (كراون بلازا) في صلالة النابضة بالحياة وبعبق التاريخ وأصالته، فهي مدينة تجذب الزوار مهما كانت اهتماماتهم، ولقد عرفت عمان كثغر عربي اشتهر بالتجارة والملاحة، وكان العمانيون رواداً للبحار منذ القدم وصناع السفن، وبعد أن استقر بنا المقام في الفندق أخذت في تنظيم برنامج لرحلات إلى الجبال والمتاحف والعيون، وكنت أشاهد على طول الطريق قلاعاً وأبراجاً وبحاراً وضباباً يجسد لوحة من الجمال، وشاهدنا العيون المائية وأودية مائية دائمة الجريان، ولقد قمت بعدة رحلات بصحبة صديق عزيز هو الأستاذ سالم العلوي وكان خبيراً بالطرق والجبال

والواحات، وكانت صلالة بجنباتها الخضراء يعانقها الجبل الشامخ والبحر من كل الجهات وأشجار جوز الهند بكثرة وكذا الموز والغافاي، والخريف هو عامل جذب خلال فترة الصيف حيث يأتي الناس من جميع أنحاء العالم للاستمتاع بمفردات الطبيعة الخلابة، المطر والجبال الغارقة في الضباب والوديان المكسوة بالخضرة والينابيع والشلالات والسهول الخصبة ومناظر الريف الاستوائي.

ولقد قمت بعدة زيارات لكل من آثار البليد الذي يحتوي على آثار إسلامية قدمية وقد أدرج هذا الموقع ضمن قائمة التراث العالمي التابعة لمنظمة اليونسكو، كما قمت بزيارة لموقع خور روى الأثري، سمهرم، وكان اسماً لأحد الملوك قبل الإسلام، كما قمت بزيارة لبلدة «نمريت» على بعد ٧٧ كيلاً عن صلالة وشاهدت بحرها الصافي الجميل، وتناولنا الغداء في أحد مطاعمها في داخل البلدة القديمة، ولقد اشتهرت هذه البلدة بالأسماك وتجارة اللبان، ويعتقد علماء الآثار بأن ملكة سبأ جاءت إلى هذه المنطقة للتزود باللبان، وذهبنا في رحلة إلى وادي دربات وهو عبارة عن حديقة طبيعية ذات مناظر خلابة تتخللها الجبال والكهوف والسهول الخضراء وأنواع مختلفة من الحياة البرية: وخلال رحلة إلى الجبل مررنا بمكان يسمى ضريح النبي أيوب عليه السلام على بعد ٣٥ كيلاً من صلالة، وبالقرب منه توجد عين ماء، ثم ذهبنا بعد ذلك في صباح يوم مشرق جميل إلى عين «أرزات» حيث شاهدنا بعض الينابيع الطبيعية التي تتدفق من وسط الصخور ثم تنساب في مجرى يتفرع وسط البساتين الخضراء،

ومنها إلى عين «جرزيز» وهي تبعد حوالي ١٤ كيلاً عن صلالة، ويوجد بموقع العين عدد من الكهوف ومظلات لاستراحة الزوار ومنها إلى عين «صحنوت» والتي تقع شمال شرق مدينة السعادة وتبعد ١٥ كيلاً عن صلالة، ولقد شاهدنا موقع العين والمناظر الجميلة بجوارها، ثم انتقلنا بصحبة الصديق سالم العلوي الخبير بهذه الأماكن إلى عين حمران وعين أثوم ومنهما إلى طاقة وهي بلدة ساحلية لها تاريخ عريق وتبعد عن صلالة بحوالي ٣٣ كيلاً تطل على شاطئ رملي جميل، ومن أبرز معالمها التاريخية حصن طاقة ثم ذهبنا إلى جبل «سمحان» وهو جبل شامخ ومنه إلى مرباط لمشاهدة الفندق الجديد الذي أقيم حديثاً وهو ماريوت، ويبعد عن صلالة ٧٧ كيلاً ويطل على البحر، وبعد زيارة «طاقة ومرباط» ذهبنا إلى مركز البلدية وهو الموقع الأساسي الذي تقام فيه فعّاليات مهرجان صلالة السياحي، حيث يتضمن قاعات تقام فيها عروض وأمسيات المهرجان ومسرح خاص للأطفال وقرية تراثية شاملة وخلال التجول في ربوع هذا المكان وفي كل بقاع منطقة ظفار الجميلة والمتنوعة ما بين تراث وآثار وعيون وقلاع ومناطق وجبال تنطق بذكريات تاريخ حافل نظمت قصيدة مطلعها:

من الرياض ومن بدر ومن أحد جئنا صلالة دار الود والحسب
تحية ملؤها الإخلاص مفعمة بالشوق والحب من نزوى إلى خلب

وهي قصيدة طويلة أوحت بها هذه المرحلة لي أضافت الكثير من المعلومات بما شاهدته في هذا البلد الشقيق وأهله الأوفياء الطيبين

حيث جمع بين تاريخ حافل بعراقة الماضي وآفاق المستقبل ، وبعد تمضية أيام ممتعة في ربوع ولاية ظفار ودعت صلالة مردداً قول الشاعر العربي:

بنفسي تلك الأرض ما أجمل الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

أيام ثقافية على ضفاف الخليج في الكويت

للرحلات فوائد لاستزادة المعرفة والتعرف على مختلف جوانب الحياة وتجديد النشاط وحب المعرفة.

ولقد فطر الله الإنسان على البحث المستمر عن الحقيقة ومعرفة ما تزخر به الحياة وحب المعرفة والاستطلاع، مما يزيد المعارف والثقافة، ولقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعني به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ وما زالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدراً للتعرف على أحوال الأمم وثقافات الشعوب ولقد قمت بهذه الرحلة إلى دولة الكويت يوم الجمعة الموافق ١٤٢٦/٣/٢٨هـ حيث فارقنا مطار الملك خالد الدولي على متن إحدى الطائرات الكويتية التي كانت تسير بنا بين شعاب نجد وأوديته وجباله وقممه الشامخة ورياضه الجميلة مردداً قول الشاعر أبي الطيب المتنبي:

إذا مضى علم منها بدا علم وإن مضى علم منه بدا علم

ولكم توحي تلك المناظر بتاريخ عريق وما تزخر به من ذكريات ومجد وخطوب وتاريخ خالد وكان في الرحلة نخبة من أدبائنا الدكتور منصور الحازمي والدكتور عبدالله المعيقل وإبراهيم التركي ومحمد رضا نصر الله، وكنا ضمن مجموعة من المدعوين من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري للحضور والمشاركة في ملتقى الكويت الأول للشعر العربي في العراق وخلال رحلة الطيران

كنت أتذكر قصائد الشعراء وما قالوه في تلك المرابع التي نمر بها حيث يقول أحد الشعراء:

سقى الله نجدا من ربيع وصيف وماذا ترجى من ربيع سقى نجدا

وقول الآخر:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجدا على وجد

وفي أفياء القصيد الوارفة الظلال تذكرت قول القائل:

تمتع من ذرا هضبات نجد فإنك موشك ألا تراها

وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث مردداً قول الشاعر:

تحث مطينا الأشواق منا ونقطع بالأحاديث الطريقا

إذا بالطائرة تعلن الاستعداد للهبوط في مطار الكويت الدولي وانتقلنا إلى قاعة التشريفات حيث كان في الاستقبال عدد من المسؤولين الذين رحبوا بنا وبعد انتهاء الإجراءات المعتادة ذهبنا إلى فندق (ماريوت) أحد فنادق الكويت الفخمة، وبعد استراحة صعدنا إلى الدور السادس عشر حيث تقع قاعة الثريا حيث وجدنا الشيخ عبدالعزيز سعود البابطين والأستاذ عبدالعزيز السريع وجمع كبير من الأدباء والشعراء من مختلف أرجاء الوطن العربي والشعراء العراقيين القادمين من الخارج وتحدث الأستاذ عبدالعزيز البابطين مرحباً بالشعراء والأدباء ومتحدثاً عن أهداف هذا الملتقى الشعري الذي تقيمه المؤسسة وعن المحاضرات والندوات والأمسيات الشعرية وكانت فرصة لإثراء الكثير من الأسئلة وفتح الأبواب والنوافذ على

الإبداع والتعبير الثقافي والأدبي والفكري بين الكويت والعراق أولاً وبين العراق وبقية الأقطار العربية الشقيقة ثانياً وإن هذا الملتقى الأول للشعر العربي سيكون فاتحة لملتقيات شعرية وثقافية أخرى حول الشعر العربي ، لقد كان هذا الملتقى يذكرني بالمواسم والأسواق الشعرية وفي صباح يوم السبت توجهنا نحو قاعة الاحتفالات بمعاهد التربية الخاصة في حولي وكانت القاعة مليئة بالمدعوين.

وبرعاية وحضور سمو رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح وبمشاركة رئيس مجلس الأمة جاسم الخرافي والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء والنواب وكبار رجال الدولة، افتتح ملتقى الكويت الأول للشعر العربي في العراق.

استهل حفل الافتتاح رئيس مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين عبدالعزيز البابطين بكلمة رحب فيها بضيوف الملتقى من العراقيين والعرب فقدم شكره إلى سمو رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد على تشريفه برعاية الملتقى وأكد في كلمته أهمية هذا الملتقى قائلاً:

(إننا على ثقة تامة بأن المشاركين في هذا الملتقى، وبما يتمتعون به من علم وثقافة وسعة اطلاع سيثرونه من خلال المناقشات والدراسات القيمة، لكن أهميته القصوى تنبع من كونه يأتي في مفصل مهم من تاريخ الأمة والمنطقة، يصل ما انقطع ويرأب ما انصدع، ونحن في الكويت ولله الحمد لم يكن بيننا وبين شعب العراق العزيز ومثقفيه أي خلاف أو شقاق، وكانت الكويت ولا تزال طليعة المساندين لهذا

الشعب، ولثقافته وحضارته، ولشعرائه وأدبائه ومثقفيه، ولم نترك للأحداث التي لم يكن لنا يد فيها أي فرصة لتجاهل هذا الشعب ومبدعيه، أو التأثير السلبي في المحبة والتواصل مع أبنائه، سواء على المستوى الرسمي أو الأهلي، ولا أدل على ذلك من مثال بل من أمثلة أستقيها من مسيرة مؤسستنا التي أنشئت عام ١٩٨٩م.

دور المؤسسة مع الشعر العربي:

تحدث البابطين عن دور المؤسسة في دعم وتشجيع الشعراء العراقيين وقال: (رغم تقارب هذا التاريخ مع الأحداث الجسام التي عصفت بالمنطقة فإن المؤسسة وبكل مخرجاتها الأدبية والشعرية والمعجمية كانت وبشكل كلي إلى جانب التواصل والتعامل مع أبناء العراق المبدعين على قدم المساواة مع إخوانهم العرب الآخرين في كل الأقطار.

كما أكد دعم الكويت لهذه المناسبات وقال: (أود أخيراً التأكيد على دعم الدولة في الكويت وعنايتها الأكيدة بمثل هذه المناسبات وتشجيعها لمثل هذه المبادرات والجهود الخاصة التي تسعى مخلصة إلى التواصل الصادق بين أبناء الأمة، وبناء الثقة بينهم ونسج لحمة التضامن والإخاء على أمتن الأسس واخلص النوايا) .

وبدوره أكد هلال ناجي في كلمته نيابة عن المشاركين العراقيين دور الملتقى في تعميق الأخوة والتواصل بين شعراء ومثقفي البلدين .

كما أشاد بدور مؤسسة البابطين في دعم الشعر والشعراء، فكانت بحق راعية الشعر العربي الحديث على امتداد الوطن العربي.

وأضاف (لقد استطاعت بطموح مؤسسها وصائب فكره وصادق جهده ومبذول ماله،أن تلم شمل كل شعراء العربية المعاصرين في موسوعة واحدة، وتطبعها في مجلدات ضخام طبعتين متلاحقتين كانتا زينة وذخراً في أرفع المكتبات، ومهدت أيضاً لإعداد موسوعة لا سابقة لها هي (موسوعة البابطين لشعراء العربية الراحلين في القرنين التاسع عشر والعشرين)، وهي موسوعة أدبية، علمية رفيعة المستوى تؤرخ للراحلين من شعراء العربية عبر قرنين من

الزمن موثقة بصور الشعراء ونماذجهم الخطية وتراجمهم العلمية الدقيقة، ونماذجهم الشعرية المنتقاة، تولى أمر إعدادها نخبة من أعلام كتاب تاريخنا الأدبي، والأمل معقود في أن تدفع إلى المطابع في خواتيم هذا العام، وأقامت من المهرجانات والملتقيات الشعرية ما شاع خبره وذاع وعرفه كل المعنيين بالشعر العربي، مهرجانات كرست للاحتفاء بذكرى أعلام الشعر العربي بمصر ولبنان والمغرب والجزائر والخليج وفي أسبانيا وغيرها، فكانت تكرم الشعراء الراحلين الأعلام، وتشد على أيدي المبدعين).

كما تناول ناجي في كلمته عراقة الشعر العربي في العراق وقال (لقد كان العراق على امتداد التاريخ منارة شامخة للشعر العربي فيه ابتكر الفراهيدي علم العروض وقعد قواعده،وفيه انبثقت كل حركات تدوين الشعر العربي في مجاميع، فكانت المعلقات والمفضليات والأصمعيات وأكثر الحماسات وكتب الاختيارات الشعرية، وفيه نبغ

أعلام نقد الشعر كالحاتمي والآمدي وسواهما، وفيه أيضاً أرخ لجذور حركات التجديد في الشعر كثيرون من الدارسين والنقاد المعاصرين يظنون أن حركات التجديد في عروض الشعر العربي ظهرت في منتصف القرن العشرين، وهو وهم كبير، فقد أتيح لي بمشاركة أخي العلامة الدكتور زهير زاهد أن اكتشف عملاً عروضياً رائعاً ورائداً صنفه أحمد بن محمد العروضي – وهو عراقي – في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، عرض فيه لكل التجديدات الشعرية التي شاع أمرها في زماننا هذا والتي سميت بالشعر الحر، من شعر مرسل وشعر تفعيلة وقصيدة مدورة وغير ذلك، وهو أمر حقق الريادة للعراقيين في تجديد الشعر قبل عشرة قرون).

وبعد استراحة قصيرة تلاقى الأدباء والشعراء فيها تذكرت قول الشاعر:

وإذا الأديب مع الأديب تلاقيا كانا من الآداب في بستان

بدأت المحاضرة الأولى بعنوان (رواد الأحياء في الشعر العربي في العراق) وفي المساء كانت الأمسية الشعرية الأولى على مسرح الشامية في (حولي) وكانت تظاهرة شعرية كان قوامها كلمات وقصائد شعراء من العراق عبروا عن مكنون مشاعرهم وجميل كلمهم واستطاعوا أن يقولوا من الشعر قصائد جميلة ذكرتنا بشعراء العراق قديماً وحديثاً كالبحتري والمتنبي وغيرهما من الشعراء الذين ولدوا في العراق وفي زماننا كالرصافي والجواهري والبياتي والنجفي وغيرهم من رواد الشعر العربي المعاصر والحديث وكان الحضور الكثيف الذي تفاعل

مـع قصائـد الشعراء منسجماً مع هذه الليلـة الشعرية الخالصة بكل مـا حفلت به من لحظات إنسانية كانت الكلمة فيها هي الوقت والمكان في آن، وأدار هـذه الأمسيـة الشعريـة الدكتـور محمد أبـو شوارب لقد كانت قصائد جميلة حافلة ومفعمة بعشق الوطن.

وفي اليـوم الثـاني كانـت المحاضـرة عـن رواد التجديـد في الشعـر العربـي في العراق السيـاب ورفاقه للدكتور عبدالواحـد لؤلؤة وتلتها مناقشـة ومداخـلات وفي المسـاء توجـه الجميـع إلى مسـرح الشاميـة لحضـور الأمسيـة الشعريـة الثانيـة أحياهـا تسعـة شعـراء وقـد كان الطابع الغالب على غالبية القصائد يحمل شجون العراق والعراقيين وفي الوقـت نفسـه يحمـل رسالة حـب دافئة للكويت ورفضـاً للإرهاب وترسيخ مبادئ المحبة والمودة ونبذ الشر والفرقة والتطرف وفي اليوم الثالث كانت عن شاعرات العراق نازك الملائكة وأترابها في المساء.

لقـد كانت تلك المحاضرات والندوات قيمـة لأساتذة ونقاد بارزين تعمقـوا في دراسـة النص الشعـري العربـي بوسائل ومنهجيـات أدبية ألقت أضواء على مسيرة الإحياء والتجديد في الخطاب وفي المساء كان الحفـل الختامي تنـاول كلمة رئيـس المؤسسة وكلمة الضيـوف ألقاها أحـد الأساتذة السعوديين وهكـذا كانت أياماً حافلة بالشعر والشعراء توزعـت بـين الندوات والأمسيات والمحاضـرات وغيرها من الفعاليات الثقافية التي تؤكد أواصر الثقافة المبنية على المحبة والتعاون وترسيخ قيـم الحب والتسامح والسلام بـين الأشقاء كما جرى تنظيم برنامج لزيـارة معـالم الكويـت حيث قـام الضيـوف بزيـارة مكتبـة البابطين

المركزية، ومجلس الأمة.

كما أولم البابطين لضيوف الملتقى وجرى خلال ذلك الحفل كلمات وقصائد شعرية جميلة تناولوا فيها جوانب مختلفة عن الأدب والشعر والقصة والرواية والإبداع الأدبي الشعري.

لقد حرصت خلال وجودي في الملتقى السادس لجمعية التاريخ والآثار التي عقدت في الكويت قبل هذا الملتقى بأسبوع على زيارة بعض المعالم والآثار في الكويت مثل أبراج الكويت وهي معلم سياحي يصافح مياه الخليج ولقد افتتح هذا المعلم البارز سنة ١٩٧٩م وكذلك قصر العدل ومجلة العربي وجامعة الكويت .

كما ذهبت لزيارة معالم الكويت القديمة والوقوف عليها مثل حي الوسط في وسط المدينة بين حي الشرق وحي القبلة وكذلك أسوار الكويت التي عرفت بها ومتحف الكويت الوطني الذي يجسد العادات والتقاليد وتراث أبناء الكويت وهو مؤسسة ثقافية تعكس تاريخ وحاضرة هذا البلد.

كما قمت بزيارة لدار الآثار الإسلامية وهي مركز ثقافي إسلامي عرضت مقتنياته العالمية النفيسة في أكبر متاحف العالم، يتألف المبنى من عشر صالات ومكتبة متخصصة تتضمن تحفاً ذات قيمة تاريخية وفنية وجمالية توزعت على اختلاف أنواعها وفق تسلسل زمني على صالات عديدة اختص بعصر معين مثل العصر الأموي، العباسي، الفاطمي، الأيوبي، العثماني...الخ. وتضم الدار حالياً أكثر من ٢٠ ألف قطعة أثرية إسلامية نادرة تعود لعهود إسلامية مختلفة من

مخطوطات وخزفيات وأشغال زجاجية ومعدنية وخشبية بالإضافة إلى مكتبة متخصصة تضم حوالي ٧٠٠٠ كتاب.

كما قمت بزيارة إلى متحف طارق رجب، وهو متحف يقع في منطقة الجابرية حيث يضم مجموعات نادرة من المصاحف ومخطوطات عربية وفخاريات إسلامية وأدوات موسيقية وأثاث عربي إسلامي قديم هذا بالإضافة إلى المجوهرات الذهبية منها والفضية والمشغولات المعدنية والمطرزات والأزياء العربية القديمة والسيراميك والمنمنمات والدروع وكلها تعود إلى عصر الحضارة الإسلامية ومن ضمن تلك المجموعات النادرة والقيمة:

١ – نسخة من القرآن الكريم تعتبر الوحيدة من نوعها حيث تعود إلى القرن الرابع الهجري – الحادي عشر ميلادي وقد كتب بالخط الكوفي.

٢ – سوار ذهبي من العصر الفاطمي يعود للقرن الحادي عشر الميلادي.

٣ – مجمرة البخور (مبخرة) من العصر السلجوقي (١٠٣٨-١١٩٤) ميلادي من سوريا.

٤ – مجموعة من السيوف والخناجر تعود للقرنين الميلاديين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين ميلادي.

٥- كرسي خشبي مزخرف يعود للقرن التاسع عشر الميلادي.

وكذا الواجهة البحرية وهو مشروع سياحي كبير يمتد من منطقة الشيوخ حتى رأس الأرض بالسالمية بطول ٢١ كيلومتراً، يشتمل على

١٢ مركزاً للخدمة من مطاعم ومقاه وخدمات الإشراف والنظافة والصيانة منتشرة على طول الواجهة البحرية ويضم هذا المشروع أبراج الكويت، الجزيرة الخضراء، مجمع أحواض السباحة، نادي اليخوت، نادي الشعب البحري، ونادي رأس الأرض.

وهكذا سعدنا بقضاء أيام ممتعة مفيدة حافلة بالمتعة الفكرية والفوائد التاريخية وغادرنا الكويت والنفس مفعمة بجميل الذكريات وشتى الانطباعات ونحن أكثر ما نكون شوقاً لها.

قصائد ألقيتها في مناسبات تاريخية في دول مجلس التعاون الخليجي

الشعر كان ولا يزال الوسيلة المثلى للم الشمل والتعايش السلمي، ومنذ القدم كان الشعر فن اللغة العربية الأول به ترتفع الهمم وتعلو العزائم وتشمخ النفوس ولقد قال الجاحظ الشعر صياغة وضرب مثل ، ولقد قال زهير في قصائده:

لولا مقال زهير في قصائده ما كان يعرف جود كان في هرم

وقيل:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة المعالي كيف تبنى المكارم

ولقد أنشدت قصيدة في حفل الشعر والتعايش السلمي الذي أقيم في دبي والذي نظمته جائزة البابطين للإبداع الشعري:

بأية ألحان القريض أغرد لحفل زها حبا وودا وأشجانا
ليالي دبي زانها الله بهجة وزانت مغانيها جمالا وألحانا
أحيي لقاء الشعر ألف تحية بكل معاني الحب صدقا وإيمانا
وأهديه من نجد نسيم صفانها ومن موطن الأعشى تراثا وعمرانا
ومن ثهمد حتى العقيق ورامة ومن حومل وادي الغضا ثم ثهلانا
نحييه من آفاقنا وربوعنا ومن عابق يهفو من الشيح فتانا
ومن كل شوق دائم جاد عطره يجاور آكاما تناءت وكثبانا
أتينا تبارينا مشاعر ودنا ونهر من الإلهام مجرى حنايانا

أتاه وفود الشعر من كل جانب وحلوا بأكناف المحبة إخوانا
عكاظ أطل من ذراه إليكمو بأشعاره يهفو إلى جمع لقيانا
قد كان ملحمة للشعر رائعة فالشعر يأسر ألبابا وآذانا
بمنهج الشعر نمضي في قصائدنا تلألأ الشعر أشكالا وألوانا
فلا أقل من الأشعار نرسلها نشدو بها من بديع القول ألحانا
لو رحت أسرد ما أعنيه من أثر ملأت طرسي وما أنهيت عنوانا

دبي ١٤٣٢/١١/٢٠هـ

تحية لندوة التاريخ والآثار المنعقدة في الشارقة

وبمناسبة إقامة هذه الدورة ألقيت كلمة في حفل الافتتاح وقصيدة شعرية قائلاً: أهدي تحية من ديار النبوة ومنازل الوحي ومسارح الفصحى ومواطن الشعر والأدب ومباءات الشمم والكرم ومهوى أفئدة العرب والمسلمين إن هذه الندوة التاريخية تتبوأ من التاريخ مكانة سامقة وعنواناً وضاء وإن مجال القول في غايتها وأهدافها لذو سعة ولكن مقتضى الحال يدعو إلى الاقتضاب بهذه التحية الشعرية التي تتأرج بزكي الشذا.

أتيت إلى أبهى المدائن والجد وشامخة التاريخ والصرح والعهد
وجئت إلى أرض القواسم شاديا بما حفل التاريخ بالذكر والحمد
تسير بعزم في معارج عزها على مدرج الإنجاز بالعلم والرشد
ومن قبلة الإسلام ومن دار هوذة ومن حاتم الطائي أبث بما عندي

أزف تحايا الحب نحو أميرها فسلطان قد أعطى الثقافة من بعد
مرابع قد نافت علوما ورفعة مكانا ونهجا بالثقافة تستهدي
لك الفضل يا سلطان حيث جمعتنا وأعطيتنا حبا وودا بلا حد
ومن موطن التاريخ والمجد والهدى إليك التحايا في مذاق من الشهد
أيا ندوة التاريخ حين يصوغه رجال لهم في منهج البحث والرشد
مآثر علم قد زهت بمباحث موثقة بالعلم تعبق بالجد
هي الزاد للأجيال في منهج الهدى وقد حفلت بالصدق تحلو لذي الورد
فيا أيها التاريخ سجل لقاءنا ودونه في سفر المعارف والمجد
وما أجمل التاريخ يجمع شملنا نتيه به فخرا ونرجع بالود
فيا إخوة التاريخ في كل ساحة دراساتكم تبقى هي الضوء للرشد
أفيضوا علينا من بديع عطائكم فتاريخ أسلافي رحيق من الشهد
مزيدا من الإبداع والمنهج الذي ينير طريق الجيل في العمل المجدي

تحية للملتقى التاريخي الحادي عشر في البحرين

إنها لفرصة طيبة أن ينعقد هذا الملتقى التاريخي في رحاب مملكة البحرين الغنية بالمعالم التاريخية والمواطن الأثرية وإن زيادة التواصل بين أهل الاختصاص بين أبناء دول مجلس التعاون يعد من أهم الأهداف التي تسعى جمعية التاريخ والآثار إلى تحقيقها ويسرني بهذه المناسبة أن أحييكم بهذه الباقة الشعرية:

أتينا إلى البحرين بالغل والورد يفوح شذا الإيمان بالشوق والود

أحييك يا دار الخليفة شاديا ... بما سطر التاريخ بالفعل والحمد

مغانيك أعطاها الإله جمالها ... وسفرك بالتاريخ يعبق بالند

أوال وقد قالوا كثيرا بذكرها ... وكم قيل فيها من قريب ومن بعد

تسير بعزم في معارج عزها ... على مدرج الإنجاز بالعلم والرشد

تراث عظيم عن سنين تصرمت ... صرود بها التاريخ في سفره يهدي

لقد حفظ التاريخ فيها مآثرا ... هي الذكر للماضي وفي الغور والنجد

وجمعية التاريخ قد ذاع صيتها ... بخير اجتماع طيب الذكر والحمد

لقاءاتها مدروسة وعطاؤها ... يطوف بأوطان الخليج بلا حد

بحوث بها التاريخ في كل جانب ... حفاظا على التاريخ بالأخذ والرد

ودام خليج العرب بالعز شامخا ... تضوع رمزا في وفاء مع الود

وأسأل ربي أن يدوم محبة ... إلى منهج واف وبالعز والمجد

البحرين «المنامة»

٦/٥/١٤٣١هـ

٢١/٤/٢٠١٠م

تحية للقاء العلمي السنوي الثامن المنعقد في المنامة لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون

ألقيت هذه الكلمة والقصيدة في حفل الافتتاح.

أيها الإخوة المؤرخون تحية وسلاما ما سجا ليل وأشرق نهار وما تعاقب النيران وتجدد الجديدان، هذه تحية من فيض الوجدان والخاطر أطلقها القلب بفيض عذب من عبق الطيب لهذا الملتقى التاريخي وبين التاريخ والشعر وشائج قربى ورحم بدأت بداية كل منهما وتطورت بتطوره عبر الزمن حيث يجتمع الشعر بخياله الواسع وآفاقه المحلقة مع التاريخ الذي يحتل مساحة كبيرة من الديوان الشعري وصار الشعر واحداً من مصادر الدراسات التاريخية وكانت الملاحم التاريخية هي تاريخ الأمم الذي تعتز به وتتناقله جيلاً بعد جيل وقد صنع بعض الشعراء مطولات شعرية استمدوها من التاريخ الإسلامي وهناك دواوين شعرية صدرت بمسميات تاريخية ترسم صوراً من التاريخ في أجمل صوره وأبهى حلله فهما صنوان، وكم ازدانت المهرجانات واللقاءات بالشعر بدءاً بالشعر المسرحي ووصولاً إلى الروايات التاريخية الحديثة. وهذا الاحتفال واللقاء يكسب جمعيتنا التاريخية قيمة سامية مجيدة لكي تواصل رسالتها الجليلة في أوسع المجالات وأرفع المستويات:

يا حادي الركب إني باللقاء ثمل ... قد شفني الوجد للتاريخ والأدب

تحية الصدق والإيمان أحملها ... من سالف المجد حتى آخر الحقب

من الرياض ومن بدر ومن أحد ... جئنا المنامة دار الود والحسب
أوال كم صفحات الدهر زاهية ... بذكرها درة التاريخ للعرب
جمالها الساحر الوضاح يفتنني ... أدق في الوصف عما خط في الكتب
كم في مغانيها من حسن ومرتبع ... تبارك الله كم في الكون من عجب
حيث الربى تتجلى في محاسنها ... جنانها الخضر تشفي كل مغترب
حي الربوع وعرج في مدارجها ... تلق المكارم عند السادة النجب
من الخليج إلى تطوان تجمعنا ... أواصر الدين والتاريخ والنسب
هذا الخليج يصوغ الحب أغنية ... وينشر السلم في الأفراح والغضب
إني أحيي لقاءات محببة ... فحققوا بالتآخي سامي الرتب
أصالة جمعنا وهي باقية ... من مشرق الضاد حتى المغرب العربي
تألقت في سنا الأيام وابتهجت ... فيها المودة واختالت على الشهب
تحية ملؤها الإخلاص مفعمة ... بالشوق والحب من رضوى إلى حلب
وتملأ الأفق بالأشواق عاطرة ... تجيش في النفس ألحانا من الطرب
ولنسعد اليوم بالتاريخ ندعمه ... بالصدق والبحث في جد ومن كثب
بحثا وعلما وتاريخا ومعرفة ... بها سما سلف على ذرى الشهب
سمت بكم همة للبحث غايتها ... تلك التواريخ صارت موضع العجب
تاريخنا حافل بالمجد من قدم ... وفيه مجد قوي ثابت الطنب
يا إخوة العلم يا من من حضارتهم ... نور البيان بلا لغو ولا صخب
كم أنجبت أرضنا من عالم فطن ... عبر الزمان كبدر غير محتجب

فكان ما كان من علم ومعرفة ... لأمة العرب ذات الفضل والحسب
شادوا الحضارة والأخلاق سامقة ... وعـزة مثلما في سالف الحقب
تبنى الحضارات بالأخلاق تدعمها ... وبـالمـكـارم والـتـاريـخ والغلب
إن المـؤرخ في صدق وفي ثقة ... هو الحفيظ على الأمجاد والرتب
وكم طموحاته تاقت وفي لهف ... أكـرم به من مجـد دائـم الـدأب
يـبـقـى لأمـتـه رمـــزا تمـجـده ... قد ظل يسعى بعزم النابه الأرب
كل المشاهد تاريخ الشعوب يعي ... فهو الأمين على الآثار والكتب
يـحـقـق الـلـه آمـــال الـبـلاد به ... في عزمه همم كصيب السحب
الـلـه أكـبـر في تـاريـخـنـا عبر ... تلكم روائعه بالجهد والنصب
وكـلـنـا أخـــوة فـيـمـا نـؤمـلـه ... فامضوا بصدق فأنتم عزة العرب
دام الوئام عميقا في تجمعنا ... وزانـه ما هما بالهاطل اللجب
يفيض في كل نفس من مآثره ... هذا التعاون بين الإخـوة النجب
يا معشر الإخـوة الأحباب معذرة ... فلا تلومو(ننني) في القول والطلب
إني لأخلص في قولي وفي عملي ... أدعو لقومي بالتوفيق والنشب
فباركوها خطى للعلم منطلقا ... وحققوها منى في غاية الأرب
أحيوا لحاضركم أمجاد سالفكم ... لتستنير بكم في حالك الكرب
دمتم من الله في حفظ وفي ظفر ... للعلم والبحث والتاريخ والأدب

المنامة

١٤٢٨/٤/٨هـ/٢٠٠٧/٤/٢٥م

تحية عمان: ألقيت هذه القصيدة في حفل افتتاح الملتقى التاريخي لدول مجلس التعاون في مسقط في ١٤٣٣/٦/٣هـ

من الحطيم من البيت العتيق ومن ... مهد النبوة حيث الركن مستلما
تحية ملؤها الإخلاص صادقة ... كالشمس مشرقة فانجابت الظلما
حي عمان التي ضاءت معالمها ... بالعلم والفكر والآداب والكرما
لكم من الشكر أحلاه وأجمله ... وشيمة المرء دوما يشكر النعما
عمان عاش بها الإبداع من قدم ... وما يزال بها الإبداع منتظما
يداعب البحر في رفق شواطئها ... وحولها سفن الرواد معتصما
جنانها الفيح للعشاق منتجع ... خصب تظلله الواحات ملتزما
وحي جميعة التاريخ خالدة ... فتية ما شكت ضعفا ولا سأما
علت على مفرق التاريخ رائعة ... تشع نورا بساحات العلا قدما
فكم لها من يد يزكو الثناء بها ... وموقف ذكره يزكوا به القلما
تاريخنا الفذ كم أبدت محاسنه ... بمنهج البحث والتأصيل والقيما
تراثنا لم يزل رمزا لعزتنا ... ومصدرا لثراء الفكر والعلما
تاريخنا حافل لا يستهان به ... رغم الجحود ومن في آذانهم صمما
في ذا اللقاء كم بحوث سوف يعرضها ... رواد تاريخنا والكل منسجما
بكم تعالت صروح العلم وارتفعت ... وليسمع الكل من إبداعكم حكما
هذي المناقب للتاريخ نذكرها ... عزيمة صلبة نمضي بها قدما
عاش الخليج وحيا الله قادته ... ودام ذخرا وعزا يزرع الشيما
ومشرعا بابه للعلم مؤتلقا ... كم أنبتت أرضه الرواد والعلما

عمان – مسقط
في ١٤٣٣/٦/٣هـ
الموافق ٢٠١٢/٦/٢٣

تحية لملتقى الشعر في دولة الكويت

هـذه تحية مـن فيض الوجـدان والخاطـر أطلقها القلـب بفيض عـذب لهـذا الملتقى الذي يتبوأ مكانة سامقة وعنواناً وضاء وإن مجال القـول في غايته لـذو سعة ولكن مقتضى الحال يدعـو إلى الاقتضاب بهذه التحية الشعرية التي تتأرج بزكي الشذا..

بـأيـة ألحـــان القـريـض أغـرد ... لحفل زهـا حبا ووداً وأشجانا
أحييك يا شعب الكويت تحية ... بكل معاني الحب صدقا وإيمانا
شواطيك أعطاها الإله جمالها ... وزانـت مغانيها جمالا وألحانا
أتـيـنـا تـبـارينـا مشاعر ودنـا ... نهر من الحب يجري في حنايانا
وأهديك من أم القرى وربوعها ... ومن طيبة الأمجاد نورا وقرآنا
وأهديك من نجد صفاء نسيمها ... ومن موطن الأعشى تراثا وعمرانا
ومن ثهمد حتى العقيق ورامة ... ومن حومل وادي الغضا ثم ثهلانا
نحييك مـن آفـاقـنـا وربوعنا ... بعابق من شميم الشيح فتانا
أتينا هنا من كل فج وموقع ... إلى ملتقى الأشعار شيبا وشبانا
بكل شوق سما انثالت خواطرنا ... لـه نجـاوز آكـامـا وكثبانا
أتاكم وفود الشعر من كل جانب ... وحلوا بأكناف المحبة إخوانا
فأهلا بمن جـاءوا بكل حماسة ... خطاهم سريعات وفي القلب تحنانا
«عكاظ» أطل من رباه إليكم ... مـآثـره تهفو إلى جمع لقيانا

وما أجمل الأشعار تجمع شملنا ... نتيه بها فخرا وللمجد عنوانا

إن الأديب لإنسان سما خلقا ... وجل قدرا وزان الفكر تبيانا

وكم جلا من خطوب الدهر من سير ... وسوف يحملها للناس أزمانا

فشعركم واضح كالشمس مفخرة ... يشدو به الكل إبداعا وعمرانا

يا مبصي الشعر في أرض العراق لكم ... تحية الود تقديرا وعرفانا

في ملتقى الشعر قد عم السرور بكم ... والكل في فرحة كالطير نشوانا

آمالنا لم تزل خضراء يانعة ... خفاقة تزدهي وردا وريحانا

عزم وجهد وإخلاص ومعرفة ... بكل صدق نصون الشعر إيمانا

وبارك الله مجهوداتكم ورعى ... في ملتقى الشعر نزجي الشعر ألحانا

لقد سمت للعلا أعمال ندوتنا ... هنا على شاطئ الجهراء مرسانا

فشعرنا أنتم للعين مقلته ... وأنتم الصحب في ذا الجمع مزدانا

سرنا على نهجه صدق مشاعرنا ... فما وهنا ولا أبدين خذلانا

فأبرزوا روعة الأشعار حيث غدت ... خير اللآلئ ياقوتا ومرجانا

قصائد كلل التاريخ هامتها ... ومن صروح العلا في ذكر من كانا

بمنطق الشعر نعلي من قصائدنا ... تلألأ الشعر أشكالا وألوانا

حملتم مشعل الآداب في دأب ... وزانها الشعر إبداعا واتقانا

فشعرنا ناصع في مجد أمتنا ... أشجى المشاعر إخلاصا وميزانا

نفائس درة في لوحة نقشت ... أضواؤها شعشعت فخرا وإيمانا

فامضوا بعزم وأيمان وفي ثقة ... وفرحة قد زهت من طيب مسعانا

في كل ما نلتقي ذكرى معطرة تنساب كالجدول الرقراق ريانا

لقد تلفت كل الباحثين لنا وتابع الكل إذ يصغي للقيانا

فاستنهضوا يا شحاذ الفكر أمتكم وحلقوا في ذرى الإيمان إخوانا

وكم بهمتكم للشعر من أمل للمجد والفكر إعلاما وأركانا

أرضى الجزيرة يا حباً يوحدنا على التعاون إخلاصا وبنيانا

دام الوئام عميقا في تجمعنا بالحب متشحا وردا وريحانا

يا روضة الشعر قد هيجت عاطفتي في ملتقى الشعر بالآداب مزدانا

الكويت – ١٤٢٥هـ

رحلة إلى اليمن

منذ مدة والنفس تحدثني بزيارة اليمن والوقوف على معالمه وأخباره وآثاره.. ولكم قرأت الكثير من كتابات المؤرخين اليمنيين ممن لهم باع في التاريخ تأليفاً وتحقيقاً ودراسات ولقد تتبعت كتابات مؤرخ اليمن المعروف أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل وصفة جزيرة العرب الذي تبعه واعتمده الكثير من المؤرخين والمحققين من قدامى ومعاصرين وكذا صاحب معجم البلدان «ياقوت بن عبدالله الحموي..» وغيرهم فقد أحاطوا بأوصاف تلك البلاد وتاريخها ومعالمها وآثارها وما يتعلق بأوصافها وآدابها وشعرائها. وقد سميت بالخضراء كما يقول الهمداني لكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، ولقد كانت حفاوة العلماء والمؤرخين والباحثين كبيرة في هذا المجال كل ذلك شدني إلى الوقوف على تلك المعالم فتطلعت إلى الفرصة المناسبة للقيام برحلة إلى تلك الربوع.. فصادف أن تلقيت دعوة كريمة من مدير جامعة صنعاء ورئيس مركز البحوث والدراسات اليمني بالحضور للمشاركة في أعمال الدورة الثامنة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية فتوجهت يوم الجمعة الموافق ١٧/١٠/١٤٠٥هـ على متن إحدى طائرات البوينج، وقد أقلعت بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات حيث مررنا بمدينة تعز ولقد كنت أشاهد جبال السروات ثم جبال اليمن الشامخة حتى وصلنا إلى صنعاء المدينة

التاريخية والتي كتب عنها المؤرخون كثيراً، فهي من أقدم المدن، نعم ها هي صنعاء والتي قال فيها أبو محمد الحسن الهمداني:

أرضى تخيرها سام وأوطنها وأس غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمها ولا علا حجر من قبله حجرا

وقال أيضاً أحمد الرداعي وما أكثر ما قال الشعراء ولعله يؤرخ هنا لها:

صنعاء ذات الدور والآطام والقدم القدام ذي الأقدام
والعز عن ذي الهوة الغشام أست بعلم لابن نوح سام
بعلم رب ملك علام إذ رادها سام بلا توهام
ورادها من قبل ألفي عام ما بين سفحي نقم النقام
وبين عيبان العبير السام فأسها في سالف الأيام

ويقول الهمداني:

ما زال سام يرود الأرض مطلبا للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوأ غمدانا وشيدها عشرين سقفا يناغي النجم عاليها

فلقد كانت معشوقة الشعراء وما أكثر ما قرأنا من أشعار رقيقة يتغنون فيها بقصائد مفعمة بالحنين والشوق لهذه المدينة وكنت أتلفت يمنة ويسرة في ربوع هذه المدينة، وأنا في طريقي إلى فندق «سبأ» فأرى فيها تاريخ الحياة لأمم عديدة تذكرت خلالها عرش بلقيس وسد مأرب وسبأ وحمير ومعين والتتابعة وسيف بن ذي يزن...الخ.

وحضارة مأرب. حضارة رواها القرآن الكريم في سورة سبأ وأطلق

عليها المؤرخون اسم أرض (الجنتين).

ومدينة «مأرب» هي العاصمة التاريخية لليمن، وتقع على بعد ١٧٠ كيلاً شرق العاصمة صنعاء وتربطها بالعاصمة طريق مرصوفة..

وهي مدينة عريقة عاشت حضارات دول غابرة هي دول معين وسبأ وحمير، وبها آثار تلك الحضارات من منشآت ومعابد مثل معبد الشمس، وطرق وسدود لا تزال أطلالها شاهدة. وقد حظيت هذه المدينة الآثرية – وخصوصاً منذ مطلع هذا القرن – باهتمام الباحثين وعلماء الآثار العرب والأجانب، كما شد إليها السواح من كثير من بلدان العالم، وكتبوا عنها عدة مؤلفات وأبحاث، كما حظيت اللغة اليمنية القديمة وأبجديتها التي توجد نصوص منها منحوتة على الصخور والكهوف والجبال في مدينة مأرب وما جاورها باهتمام كثير من الدارسين اليمنيين الذين أخرجوا عدداً من هذه النصوص التي تسمى «خط المسند» وقاموا بترجمة مفرداتها التي لا يزال البعض منها ينطق حتى اليوم ضمن بعض اللهجات اليمنية.

وفي اليمن معالم تاريخية كقصر غمدان الشهير ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل وجامع صنعاء والهمداني والزبيدي وعمرو بن معد يكرب وغير ذلك مما هو موضع اهتمام الباحث والمؤرخ والأثري والأديب.

وتذكرت الرحالة المعروف أمين الريحاني وهو يدخل صنعاء مبهوراً بزحمة التاريخ وجلال الزمن، حقاً إن الحديث عن هذه البلاد وما فيها له نكهة تاريخية تستهوي القارئ والمؤرخ والرحالة

بل وعلماء التاريخ والآثار.

إن صنعاء مدينة محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً كأنها وهي كلها بيضاء سلسلة من التلال في سهل مخضر جميل وعن شمالها وجنوبها هضاب وآكام وأودية.. وهكذا نزلنا في صنعاء مردداً قول الإمام الشافعي رحمه الله الذي سار سير الأمثال:

«لابد من صنعاء وإن طال السفر».

وقول الشاعر:

يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد وحبذا واديك الظهر والضلع

وما أكثر ما بكى شعراء اليمن بين يديها ومن ذلك قول أحدهم:

إني إلى صنعاء يحملني وجه النهار وترحل الأصل
فمتى تظللني مآذنها ويضيء من أحضانها الجبل
أأموت يا صنعاء مغتربا لا الدمع يدنيني ولا القبل

لقد اطلعت على الكثير من المعالم والآثار التاريخية حيث تمكنت من التجول بين عدد من المدن والقرى.. ولقد قمت بزيارة لجامع صنعاء الكبير والذي بناه أبان بن سعيد وقيل أيوب بن يحيى في السنة السادسة للهجرة وقد بنى بأحجار كبيرة ضخمة متقنة النحت به زخارف ونقوش وسقفه تحفة من تحف الفن الإسلامي النادرة ويحيط بالسقف من جميع جنباته حزام خشبي محفور عليه آيات من القرآن الكريم بالكتابة الكوفية.

وفي هذا الجامع مكتبة ضخمة تحتوي على مجموعة كثيرة من

المخطوطات والمصاحف المكتوبة على الرق بالخط الكوفي والحجازي على مختلف الأحجام، وقمت بزيارة لدار الكتب والمخطوطات ولجامع صنعاء حيث استقبلنا عبده حسين صلاح حيث قام يشرح لنا المعدات الفنية لترميم المخطوطات وتجليدها وتصويرها وفرز كل نوع على حدة .. ثم دخلنا قاعة معرض المخطوطات الحافلة بشتى المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفي والحجازي والنسخي، وكذا بعض النقوش وحروف المسند.

والواقع أن الجامع يزخر بثروة كبيرة من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف، ومن جامع صنعاء خرجنا نتجول في وسط المدينة القديمة ومشاهدة بيوتها وآثارها فزرنا قصر غمدان ومسجد صلاح الدين وغرفة القليس وسوق الملح وغير ذلك من أحيائها القديمة وحواريها وتراثها المعماري والأثري وأبوابها العشرة. أما مبانيها فهي تضم أنماطاً من المباني العربية والتي كانت شائعة قبل الإسلام ثم النمط الإسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الإسلام ثم النمط العثماني وكل صنعاء القديمة ما زالت تحتفظ بكل هذا التنوع مع ملاحظة الزخرفة وتعدد الطوابق.

حقاً إن صنعاء لمدينة قديمة يقال إنها أول مدينة عمرت بعد الطوفان وسميت باسم بن نوح، ولكم حفلت كتب التاريخ والأدب بأخبارها، وهناك عدد جم من الشعراء والمؤرخين والأدباء عنوا بوصفها وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وتاريخها وأخبارها.

دار الكتب، المخطوطات:

قمت والصديق الدكتور عبدالله الغنيم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بزيارة لهذه الدار الحافلة بخزائن المخطوطات وقد استقبلنا رئيسها القاضي إسماعيل بن علي الأكوع من المحققين والمشتغلين بكتب التراث وله اهتمام وخبرة بالمخطوطات والتقينا عنده بكل من مدير المتحف الأستاذ زيد بن علي عنان وبعض الأخوة العلماء فكان الحديث عن الكتب والمخطوطات والوثائق ودور مراكز البحوث والمخطوطات في نشر ذلك وأهمية الحفاظ على التراث ودور العلماء والباحثين.. وجهود البعض من المستشرقين في هذا المجال وأهمية تسهيل الحصول على المخطوطات للباحث والاستفادة منها بأسهل الطرق.. ولقد أمضينا وقتاً ممتعاً انغمسنا خلاله في أغوار التاريخ والتراث والعلم. حقاً إن واجب جامعاتنا ومراكز البحوث الاهتمام بالتراث وتحقيق المخطوطات كما أن الكثير من المخطوطات مهددة بالضياع ما لم نبادر إلى صيانتها وترميمها وحفظها خاصة ما كتب منه على الرقوق والجلود كما أن الاهتمام بالوثائق ناحية مهمة باعتبارها مصادر مهمة في البحث والدراسة.

زيارة السفارة السعودية:

قمت بزيارة لسفارتنا وقد وجدت من سعادة السفير الأستاذ علي القفيدي كل حفاوة وتقدير ولقد حرص/ أكرمه الله على إكرامي فدعاني لحفل غداء حيث دعا الإخوة السعوديين فكان لقاءً أخوياً

وديـاً وفي أثنـاء وجـودي هنـاك قمـت بزيـارة مكتـب الملحـق التعليمي السعـودي ولقـد سـررت بما يقدمـه المكتب مـن خدمـات جليلة حيث إن هنـاك بعثـة تعليميـة سعوديـة كبيرة تقـوم بالتدريس في مختلف المناطـق، وحكومتنـا الجليلة تأتي في مقدمـة الأمم بذلاً وعطاء حيث بنـاء المدارس والمستشفيات والطـرق والمساجد.. ثم خرجت من مكتب الملحق التعليمي بعد أن زودني بمجموعة من صحف بلادنا.

زيارة مدينة تعز:

مدينة تمتاز بجمالها الأخاذ وجمعت بين الأصالة والمعاصرة.

وفي الصبـاح الباكـر ذهبـت إلى مدينـة تعـز وانطلقت بنـا السيارة شطرهـا وكان الطريـق مائتين وخمسة وستـين كيلاً جنوب العاصمة ومررنـا بمناطق خضـراء وجبال مجللة بالجمـال والخضرة وسهول تغطيها المزارع ومررنا بعشرات البلدان والقرى كذمار، والتي سبق أن تعرضـت لكارثـة الزلزال حيث شاهدنا آثاره وكـذا إب ويريم وغيرها مـن القـرى والبلـدان وهـي أجمل مناطق هـذه البلاد، ولقـد صعدنا جبالاً شامخة فارعة فكنا نرتفع تارة ونهبط أخرى إنها لقمم شامخة خطـرة كجبـل سمارة الشهير وكان مرافقي الأخ محمد المعلمي يشرح لي أسمـاء هذه الأماكن والجبال والوديـان وكان السائق ماهراً حاذقاً بالطريـق فعندمـا رأني مكتئبـاً من وعـورة الطريق قـال لي لا تخف فقـد تـرددت مع هـذا الطريق عدة سنوات وما زلـت أتردد بين جنباته فهـو شيء سهـل فقلـت زادك الله نشاطاً وقوة ومهـارة فعليك بالرفق ففـي التـأني السلامة وفي العجلـة الندامة. ولقد تعـودت على صعود

واجتياز مناطق جبلية أصعب منها وهي تبعد عن العاصمة صنعاء (٢٥٦) كيلاً.

ثم لاحت لنا تعز المدينة الخضراء يحتضنها الجبل الأشم «صبر» وهي مدينة جميلة تقع على الربوات المتناثرة هنا وهناك تغريك خضرتها وجبالها وجمال مبانيها، وقد زرنا أسواقها القديمة وجامعها وحصونها القديمة وجبالها الشامخة وقمت بزيارة للمتحف الوطني والعديد من المعالم والآثار القديمة والمناطق السياحية وتعتبر تعز من المدن التي لعبت دوراً في تاريخ اليمن القديم والمعاصر لاسيما في العصر الإسلامي الأول.

ثم غادرناها إلى بعض القرى والأرياف حتى عدنا إلى العاصمة بعد أن مررنا بالعديد من قصور اليمن ومعاقلها الكثيرة والأثرية وهي غاية في فن العمارة ومن القصور التاريخية التي لا زالت باقية قصر غمدان وصرواح وناعط وفيه يقول الهمداني:

فمن كان ذا جهل بأيام حمير ... وآثارهم في الأرض فليأت ناعط
يجد عمدا تعلو الفنا مرمرية ... وكرسي رخام حولها وبلائط
ملاحقها لا ينفذ الماء بينها ... ومبهوقة مثل الفراخ خرائط
ترى كل تمثال عليها وصورة ... سباعا ووحشا في الجبال وباسط

وفي قصر صرواح يقول الشاعر:

أبونا الذي كانت بصرواح داره ... وفي جبل النعمان عز تمكنا
ونحن ورثنا عز خولان ذي الندى ... مآثر عز مثلها لم يدم لنا

وقبل أن نعود للعاصمة لاحت لنا قصورها فتذكرت قول الشاعر:

إذا طلعنا جبال السود لاح لنا من أرض صنعاء معطاف ومرتبع

وطلبت من مرافقي أن نعرج لمشاهدة بعض الآثار ثم عدنا إلى الفندق بعد رحلة حافلة بالأدب والتراث والمعرفة والآثار والمشي والبرد وهطول المطر واستغرقت في نوم عميق حتى الفجر حيث الاستعداد للسفر مردداً قول القائل:

نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا فدنيانا نزول وارتحال

رحلة إلى حضرموت (بلاد الأحقاف)

كم يكون المرء سعيداً برؤية بلد من بلدان أمته المترامية الأطراف ولقد قر الله عيني بزيارة البلدان العربية ولحضرموت في تاريخ الحضارة العربية سفر خالد ولقد سعدت بحضور فعاليات احتفالات تريم الثقافي بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠م وحضور ندوة (الربانيون وراثة النبوة وعظم المسؤولية) التي عقدت خلال الفترة من ١٩ -٢١ ذو القعدة ١٤٣١هـ بمدينتي سيئون وتريم بدعوة كريمة من رابطة العالم الإسلامي ولقد غادرت الرياض مع ثلة مثقفين ومسؤولين ورجال أعمال وإعلام وأكاديميين وانطلقت الرحلة من الرياض إذ حطت الطائرة الميمونة عند الساعة الحادية عشرة صباحاً في مطار سيئون والتي كان استقبالها لنا حافلاً من رجال العلم والثقافة والدين والتربية ومحافظ حضرموت ونائب السفير السعودي عبدالله السلمي ثم انطلقنا في الحافلة إلى الفندق في بلدة سيئون وبعد استراحة في الفندق توجهنا لقاعة الاحتفالات فكان اللقاء بمعالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ومعالي وزير الأوقاف اليمني ورئيس مجلس القضاء الأعلى وعدد كبير من العلماء والأدباء والمشايخ الذين حضروا من المملكة ومن اليمن ومن عدد من الجامعات في المملكة واليمن وكوكبة من علماء قطر والإمارات وعمان فكانت هذه الندوة من الندوات العلمية والفكرية حيث قدمت عدد من البحوث

القيمة في ثلاثة محاور رئيسية في كل محور أربعة موضوعات وقد كانت البحوث المقدمة والمشاركات على درجة عالية من الأهمية لامست قضايا فقهية معاصرة وعملت على ترسيخ مفاهيم وثوابت إسلامية جوهرية وخرجت بتوصيات مهمة ورؤى مشتركة للعديد من القضايا الإسلامية – ولقد أثرى هذه الندوة الحشد الكبير من العلماء ببحوث علمية وروح عالية والتقاء الآراء وتلاقح الأفكار بين علماء البلدين الشقيقين ثم قمنا بعد انتهاء جلسة المؤتمر بزيارات لمدينة تريم وهي العاصمة الدينية لحضرموت منذ القرن الرابع الهجري وهي تقع شرق سيئون وتبعد عنها حوالي ٣٥ كيلاً وعن عاصمة المحافظة المكلا ٣٥٦ كيلاً وترتفع عن سطح البحر ٢٠٧٠ قدما وتقدر مساحتها بحوالي ٣٥٠٠ كيل وترجع المصادر التاريخية تسمية مدينة تريم إلى أحد ملوكها وهو تريم بن كندة وأول من عمرها تريم بن حضرموت بن سبأ وقد جاء ذكرها في النقوش اليمنية القديمة وكانت عاصمة لملوك كندة وقد عرفت على مر التاريخ بكثرة مساجدها وزوايا العلم فيها ولقد شاهدنا العديد من المساجد وأربطتها ومعاهدها ومعمارها الطيني وحرفها وفنونها التقليدية وآثارها التاريخية ومكتباتها ومخطوطاتها وفي صباح يوم الجمعة ٢٩/١٠/٢٠١٠م أقيم حفل اختتام الندوة العلمية بمدينة تريم وألقيت فيه عدد من الكلمات بحضور عدد كبير من العلماء والمسؤولين والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ورئيس مجلس القضاء الأعلى في اليمن وألقى الدكتور عبدالله التركي كلمة حيا

فيها الجمع المبارك من العلماء والأكاديميين المشاركين في الندوة مثمناً جهود خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز والرئيس علي عبدالله صالح لاهتمامهما بالعلماء وأهل العلم والمؤسسات العلمية، مشيداً بجهود القائمين على تنظيم الندوة وفي مقدمتهم المهندس عبدالله أحمد بقشان والدكتور عمر بامحسون، كما ألقيت كلمة وقصيدة بهذه المناسبة تحدثت فيها عن الزيارة التاريخية لبلاد الأحقاف والاطلاع على تاريخها وآثارها ومعالمها متذكراً قول الله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ والذي انطلقت منه أكبر هجرة عربية استطاعت نشر الإسلام بالقدوة الحسنة والكلمة الطيبة والمشروعات الثقافية الرائدة، لقد كان لحضرموت صورة حضارية، حيث التاريخ والتراث والحياة والعمل، وتريم غنية بتاريخها وتراثها الحضاري والإسلامي ولعلمائها أثر كبير في نشر الإسلام وفي ذاكرة التاريخ العربي الإسلامي – ولقد كانت فرصة للتجول في ربوع وادي حضرموت الذي يضم بين جانبيه عدداً من المدن والقرى والمزارع والمناظر والمشاهد الأثرية والتاريخية وكذا وادي (دوعن) الذي عرف بإنتاج العسل أهم مقومات اقتصاد سكانها وللأسف بحثنا عن العسل فقيل لنا قد انتهى موسمه وزيارة مدينة (شبام) ذات الطابع المعماري الجميل إذ تصل أدوار المباني إلى ثمانية مع أنها مبنية كلها من الطين منذ زمن بعيد ورأينا عدداً من السواح الأجانب وقد أدهشتهم هذه المناظر والمباني ولا غرو فلحضرموت في تاريخ الحضارة العربية سفر ذهبي خالد حقاً إن الرحلات الجماعية

المنظمة وخاصة عندما تكون مع جمع من العلماء والمثقفين تضيف سعادة لا تتحقق في الرحلات الفردية وتحية للدكتور بامحسون الذي بذل جهداً كبيراً في رعاية الجميع وتوفير الراحة والزيارات ولرجل الأعمال المهندس عبدالله بقشان الذي وفر طائرة لنقل الضيوف ثم غادرنا تلك الربوع والنفوس مفعمة بتلك المشاهد ومليئة بالذكريات عن منطقة معرقة في القدم وضاربة جذورها عبر التاريخ وهي بلاد الأحقاف التي ذكرها الله في كتابه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾.

لقد كانت هذه الزيارة لحضرموت حافلة بزيارة عدد من الأمكنة والمناطق الآثارية والتاريخية والتعرف على الحياة الثقافية مردداً قول القائل:

وجئت أستنطق التاريخ في يمن وكل ما تحتوي أفياؤه عجب

في أرض الرافدين

يحرص المرء دائماً على زيارة بلدان العالم العربي والإسلامي وخاصة عندما يكون البلد ذا تاريخ حافل بالمعالم والآثار وعلى رأي القائل «ليس من سمع كمن رأى» وشاء الله أن تتحقق تلك الأمنية..

فقد تلقيت دعوة من رئيس مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة بحضور الدورة الثانية عشرة لمراكز الدراسات والوثائق والتي تستضيفها جامعة البصرة.. وقد تقرر أن يكون الاجتماع في يوم ٢٠/٥/١٤١٠هـ..

وغادرت الرياض يوم الاثنين الموافق ١٨/٥/١٤١٠هـ متوجهاً إلى الكويت وكان الوصول إليها الساعة السابعة مساء.. ولم تكن هذه الزيارة الأولى للكويت.. فقد سبق أن زرتها منذ عشر سنوات وبعد أن أمضيت ليلة في ربوعها والتقينا في ديوانية الشيخ عبدالعزيز بن سعود البابطين بمجموعة من الأدباء والشعراء والوجهاء من أبناء الكويت الشقيق وقد غمر الجميع أبو سعود ببشاشته ومكارم أخلاقه ووجدنا منه كل حفاوة وتقدير ثم توجهت صوب مدينة البصرة وسط طريق معبد جميل ثم توقفنا عند الحدود الكويتية العراقية برهة قصيرة من الوقت في قرية سفوان وتذكرت قول الشاعر:

رويد بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيلي على سفوان

واستأنفنا السير إلى مدينة البصرة مدينة التاريخ والتراث.. وكان الجو دافئاً والشمس مشرقة والسماء صحو خالية من الغيوم

ومضيت نحو «فندق شيراتون البصرة» حيث كان مقرراً أن نسكن فيه ووجدنا في استقبالنا مجموعة من الإخوة من مركز الدراسات والجامعة..

وفي العشي ذهبنا إلى أسواق المدينة ورؤية شط العرب الذي وصفه الشعراء والكتاب والرحالون ثم مشاهدة بعض معالم البصرة وآثارها.. ولكم تذكرت وأنا أسير في طرقاتها وبين ميادينها وأسواقها تاريخ هذه المدينة، وكذلك أمجادها العلمية وإسهامات علمائها ومفكريها وشعرائها خلال حقب التاريخ كالقرن الأول الهجري أو في العهد الأموي أو في القرن الثالث الهجري أو غير ذلك..

كان للبصريين من نحاة وأدباء ومحدثين إسهامات جيدة في مجالات اللغة والنحو والأدب وعلوم التفسير وغيرها.. فقد أنجبت مدينة البصرة العديد من العلماء الأفذاذ كالجاحظ وأبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي والمدائني والكندي وابن الهيثم.. كما سكنها الصحابي الجليل أنس بن مالك ومحمد بن سيرين والحسن البصري وغيرهم من العلماء الأجلاء..

لقد كنت أتذكر تاريخ أولئك العلماء والأعلام وأنا أطوف بميادين البصرة.. فقد تميزت البصرة على غيرها بتعدد المراكز الفكرية والعلمية إذ ذاك. إن هذه المدينة تمثل تاريخاً عريقاً ومجداً إسلامياً رفيعاً..

وبعد جولة عدنا إلى الفندق وبعد تناول طعام العشاء كان لقاء تعارف بين أعضاء الوفود المشاركة في الدورة..

وفي صباح الأربعاء توجهنا نحو جامعة البصرة.. وقد غصت قاعة الاحتفالات بالمدعوين من رجال العلم والمعرفة وأساتذة الجامعة، وقد افتتح الدورة مدير الجامعة الذي رحب بهذا اللقاء لمراكز الدراسات والوثائق في مدينة البصرة، مدينة التاريخ ثم ألقى رئيس مركز دراسات الخليج العربي كلمة ترحيبية ثم ألقي معالي الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق ووزير العدل والشئون الإسلامية في البحرين كلمة بليغة حيا فيها الحاضرين من العلماء وتمنى أن يكتب الله لأمة الإسلام النصر والتأييد وذكر أن البصرة كانت قديماً منارة تشع منها أنوار العلم والعرفان وتمنى للمؤتمر النجاح والتوفيق..

ثم بدأت أعمال الدورة واستمرت يومين.. وخلال مقامنا في البصرة وجهت لنا دعوات وذهبنا لحضورها منها دعوة مدير الجامعة في فندق الخليج.. حيث ألفينا جمعاً حافلاً من رجال العلم والأدب وكذلك حفل محافظ البصرة.. ثم توجهنا في اليوم الأخير إلى مدينة «الفاو» وهي على مقربة من البصرة وبلغناها بعد سير بالحافلات لمدة ساعة فقصدنا إلى زيارة آثارها ومعالمها.. ثم جولة في أرجائها وميادينها وغدونا نجول في أنحائها.. ثم سرنا نحو الجامع الكبير لأداء صلاة الظهر.. ولقد سألت الإخوة المرافقين لنا من أساتذة الجامعة عن أصل كلمة الفاو وسبب تسميتها فقيل لي إن ذلك يعود إلى أن الفاو اسم لسفينة شراعية غرقت في نهر المهلبان نسبة إلى المهلب بن أبي صفرة وكانت تابعة للديلم فسميت المدينة

باسمها وروى أحد الإخوة أن الفاو كانت من أرقى مناطق العالم المعروفة بكثرة وجود مادة الحناء..

ولقد ذكر صاحب المنجد أن الفاو: هو المضيق في الوادي والموضع الأملس وأنها من نواحي العراق..

وهكذا أمضينا أياماً في مدينة البصرة الفيحاء.. حيث لبثنا فيها من يوم الثلاثاء إلى صبيحة يوم الجمعة في حفاوة إخوان وعلماء أجلاء وبزيارة مدينة العلم والتي اشتهرت بسوق المربد.. حيث كان سمة للبصرة، ولعب دوراً فكرياً وظلت ذكراه قائمة ترمز إلى شهرة المدينة في عالم الأدب والشعر.. حيث كان مركزاً التقت فيه البادية بجميع ما فيها من موروثات حضارية وفصاحة لغوية وأصالة حافلة بالقيم والتقاليد.. وكان سوقاً للعطاء الفكري وقد سألت الإخوة عن موقعه وحاله.. فذكر لي بأنه بمرور الزمن تحول إلى محلة كبيرة مشهورة كانت تسمى بمحلة المربد وقد وصفه ياقوت الحموي بأن هناك شارعاً من أصل شوارع البصرة وسمي أيضاً بشارع المربد.

وفي صباح يوم الجمعة ركبنا الطائرة نحو بغداد وكانت المسافة زهاء ساعة ونصف وكان معي في الطائرة بعض الكتب فكانت خير زاد للمسافر ولما وقفت بنا الطائرة في مطار بغداد كان في استقبالنا الأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب والذي رحب بنا وتوجهنا صوب فندق المنصور ثم دعينا لزيارة مركز التوثيق وحضور ندوة تاريخية، وقد دعى لها أكثر من أربعمائة مؤرخ ومفكر من أنحاء العالم العربي وقد حضر عدد من أساتذة الجامعات السعودية وفي

مقدمتهم الأستاذ الدكتور / عبدالله الشبل وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود والأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب والأستاذ الدكتور / عبدالله العثيمين الأستاذ في جامعة الملك سعود والأستاذ الدكتور / محمد الشعفي والدكتور عبدالعزيز الشبل وغيرهم وقد ضمت الندوة نخبة من علماء التاريخ في الوطن العربي ودعى لها بعض المستشرقين وكان لقاءً حافلاً بالمناقشات العلمية والتاريخية والحضارة الإسلامية المجيدة والإضافات المفيدة.

وفي بغداد قمت بزيارة لمراكز الثقافة والمتاحف والوثائق والسفارة السعودية ومكتب الملحق الثقافي السعودي، ومركز التوثيق الإعلامي وسور بغداد وأبوابه والمدرسة المرجانية وسوق الشورجة ومسجد الإمام أبي حنيفة ومسجد الخلفاء والمتحف العراقي حيث مشاهدة آثار البابليين والأشوريين والسومريين والآثار الإسلامية ومما يحفل به من أمجاد هذه الديار التاريخية وجامعة بغداد والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله سنة ستمائة وثلاثين ومجموعة من آثار المدينة، ومكتباتها والمعالم الحضارية.. ثم ذهبت بصحبة أخي الأستاذ حمد الركبان الملحق الثقافي السعودي في العراق ورب الدار أدرى بما فيها كما يقال وتجولنا في المدينة وزرنا دكاكين الوراقين والأسواق القديمة كسوق الصفافير وسوق البزازين ومكتبة المثنى وقد شط بي الخيال حيث تذكرت بغداد وتاريخها العريق ومجالس أولئك الخلفاء والعلماء والفقهاء والشعراء وأين الكوخ والرصافة والجسر ودجلة والفرات فقد دوى ذكرها في المشرق والمغرب وأين المنصور والرشيد

والمأمون والمعتصم والبويهين والسلاجقة وغيرهم وكانت تسمى مدينة المنصور ومدينة السلام ومن أسمائها الزوراء وقد بناها أبو جعفر المنصور الخليفة الثاني للدولة العباسية سنة ١٤٥هـ وانتقلت إليها الدولة سنة ١٤٨هـ ومن يقرأ تاريخ الخطيب البغدادي سيجد الأخبار والأيام والتاريخ والشعر ولقد قيل الصناعة في البصرة والفصاحة بالكوفة والخير في بغداد.

وبعد تمضية يوم كامل في أرجاء المدينة عدت في العشي إلى الفندق حيث قضيت تلك الليلة هائماً في ذكريات التاريخ والشعر والأدب والماضي السحيق وفي الصباح تهيأنا لجولة خارج بغداد حيث زرنا بعض المدن العراقية ذات الذكر التاريخي كبابل وهي من المدن القديمة ومن ذوات العجائب وغدونا نجول بين أرجائها ومعالمها وتذكرنا ما مرت به من دهور وقرون وأيام وحضارات كما زرنا «سامراء» ذات التاريخ والجد العريض فتجولنا بين أطلالها وأسوارها وجوامعها. وتركنا سامراء مواصلين السير حيث عدنا إلى بغداد، ثم زرنا بعض الأحياء كحي الكاظمية الواقع قرب دجلة وبها مسجد الإمام الكاظم وحي الأعظمية والمنصور وغيرها من الأحياء، ثم غدونا نتجول في ربوعها ونتذكر أيامها وتاريخها وعلى جسر دجلة تذكرت قصيدة علي بن الجهم تلك القصيدة الرصافية التي فتن الأدباء بها إلى يومنا هذا وبمطلعها الجميل ونسجت حولها القصص والروايات:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وهي تزيد على أربعين بيتاً وقد حفظناها صغاراً.

ومررت بالكرخ فتذكرت قول الشاعر:

سقى الله باب الكرخ من متنزه إلى قصر وضاح فبركة زلزل

وخلال التجوال في أرجاء بغداد سألت عن قصور الخلفاء التي ذكرها المؤرخون والشعراء كقصر الخلد الذي بناه المنصور وقصر القوارير وهو قصر زبيدة بنت جعفر وقصر التاج لدار مشهورة من دور الخلافة في بغداد والقصر الجعفري الذي بناه جعفر بن يحيى البرمكي وقصر الثريا بناه الخليفة المعتضد بالله وصفه ابن المعتز في قصيدته:

حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معمورا وبورك من قصر

وعلمت أنه قد ذهب أثرها وانطمس بنيانها ولم يبق لها ذكر إلا في اسفار التواريخ وكتب البلدان.

ومررنا بنهر دجلة فقلت لصاحبي دعنا نملأ العين من مباهجه فقد حفظنا من الأشعار فيه الشيء الكثير:

ولنرى دجلة الذي فاض بالخير ـ عليها وماج بالإيناس

وبعد: فإن ذكريات التاريخ تترى أمام المرء وهو يتجول في تلك الأماكن وسرنا بين تلك الأحياء حتى بلغنا الفندق ولشد ما برّحت الذكريات قلب المرء حينما يستعرض التاريخ والأمجاد العربية الإسلامية.

.وأصبحنا يوم الأحد نتجهز للسفر إلى الكوفة والنجف وكربلاء وعبرنا دجلة خارجين من بغداد والساعة تسع من الصباح وسرنا نحو الجنوب فمررنا بعشرات القرى والبلدان منها المحمودية واللطيفية والإسكندرية ثم توقفنا قليلاً في المسيب وعبرنا الفرات

وسرنا حتى وصلنا كربلاء ثم النجف حتى بلغنا الكوفة مهد علوم العربية وملتقى العلم والعلماء.

فقد زخرت بالعلماء والشعراء والأدباء والخطباء وكان لها دور عظيم وشأن كبير ومدرسة نحوية، وزرنا جامعها الكبير وسرحنا الطرف في جنباته وفيما حوله من دور وآثار، وأخذ مرافقنا يشرح لنا تاريخه وقصر الإمارة ودور العلماء والمعالم الأثرية الباقية.

وتوجهنا إلى الحلة بلد الشاعر صفي الدين الحلي ثم رجعنا إلى بغداد وبلغناها والساعة تسع من المساء.

ولقد كانت رحلة ممتعة ويوماً أغر جميلاً رغم السير المتواصل وقد كان بجواري، أحد الإخوة المغاربة من أساتذة التاريخ، فكان حديثنا عن تاريخ الكوفة وعلمائها وقادة الفتوحات الإسلامية، فكم شهدت من أيام زاهرة ومجالس علم ومعرفة ملأت كتب الأدب والتاريخ والتراث إشعاعاً ونوراً وتاريخاً مضيئاً.. ورحم الله أسلافنا الميامين الذين قادوا فتوحات الجيوش الإسلامية.. وهكذا أوحت لنا طبيعة المكان بهذا الإحساس التاريخي ولم يقطع ذلك الحديث إلا والإخوة الزملاء من مرافقي الرحلة يودعوننا.

وبعد تمضية أيام ممتعة مفيدة في ربوع بلاد الرافدين الحافل بالآثار والمعالم العربية الإسلامية ودعنا تلك الربوع. متذكراً قول شاعره الرصافي وقصيدته التي أنشدها في حفلة تكريم أمين الريحاني خلال زيارته لبغداد:

أأمين جئت إلى العراق لكي ترى ما فيه من غرر العلى وحجوله

أيام في بلاد الشام

قرأت عن الشام كثيراً وما يحفل به من المعالم والآثار وعن دمشق المدينة التاريخية القديمة وعاصمة الأمم الغابرة والجامع الأموي والمكتبة الظاهرية وقصر العظم وفي صيف عام ١٣٨٠هـ رأيتها فرصة سانحة لزيارة بلاد الشام وأعني ببلاد الشام المعنى الواسع والحدود القديمة لبنان وسوريا والأردن وفلسطين، والتي مرت بأحقاب تاريخية قبل الفتح العربي الإسلامي فقد حكمها البابليون الآشوريون والفرس والرومان والبطالسة والسلوقيون حتى امتدت إليها يد العرب فترة من الزمن ثم استولى عليها الرومان ثم استردها العرب المسلمون بعد موقعة اليرموك الشهيرة، ولم تزل موضع اهتمامهم حتى صارت تحت الحكم الأموي وصارت دمشق عاصمة الأمويين في عام ٤١هـ ثم تعرضت للحكم التركي والفرنسي ثم عادت عربية تتمتع باستقلالها.

وكانت بداية الرحلة أن نتوجه لدمشق الفيحاء من الرياض بطريق الجو ووصلنا دمشق بعد أن مكثنا أكثر من ساعتين بالطائرة، ولقد كنت خلال تلك الساعتين أرسم خيالات شتى على بلاد الشام وعن الجامع الأموي وعن قصورها ومتاحفها ومعارضها ومدنها ومصايفها وروابيها ومساجدها ومعاهدها، وعن ابن تيمية وصلاح الدين وابن القيم وعصورها الذهبية التي مرت بها والفتوحات الإسلامية وما كتبه مؤرخوها كابن عساكر وغير ذلك مما قرأته

وسمعته مما يملأ النفس إعجاباً – ولقد كان منظر دمشق من الجو رائعاً حيث كانت الجبال والوهاد حللاً من الخضرة والنضرة بما يدخل على النفس البهجة والغبطة والسرور وتذكرت قول شوقي:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

ووصلنا دمشق واتجهنا لأحد فنادقها في قلب العاصمة مردداً أبيات حسان بن ثابت التي مطلعها:

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

وأعدت إلى الذاكرة أبيات حسان بن نمير:

ويا بردى لا زال ماؤك باردا وماء الحيا من ساحتيك نمير

وفيما كنت محتاراً لا أدري إلى أين أذهب وإذا بأحد الإخوة السعوديين ينادي على اسمي فالتفت نحو مصدر الصوت وإذا به أحد الأصدقاء الأفاضل فسعدت بلقائه حيث أخبرني بأن له شهراً ونيفاً هنا فقلت له: إذاً أنت دليل ممتاز فذهبنا للنزهة والاستجمام بين أحيائها كحي المهاجرين وأبي رمانة وسوق الحميدية وشارع بغداد وحي الربوة، وفي الأيام الأخرى قمت بزيارة آثارها كالجامع الأموي ودار الآثار وقصر العظم والمكتبة الظاهرية والجامعة والمتحف الوطني.

لقد حرصت على التردد على الجامع الأموي وتأدية فروض الصلاة فيه، والواقع أنه آية من آيات الجمال والفن الرفيع ودليل على ما لأسلافنا من مجد ورقي وتقدم ومهارة بالتصميم والفن

المعماري.. إن جامع بني أمية يحكي تاريخاً عظيماً حيث كان الخليفة يصدر أوامره من هذا الجامع فتأتمر به الدنيا، فقد كان مكانه قديماً معبداً لليونانيين حتى بناه الوليد بن عبدالملك والذي بلغت الفتوحات الإسلامية في عهده ذروتها وأتم بناءه عام ٩٧هـ ويقول المؤرخون إن بناءه استمر عشر سنوات، ولهذا الجامع مدخلان رئيسيان وأرض المسجد كلها مفروشة بالمرمر، ولقد روي عن ياقوت الحموي قوله: إن من عجائب هذا المسجد أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأي فيه ما لم يره في سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها.

وبعد مضي عدة أيام من التجوال في داخل مدينة دمشق دعانا أحد الإخوان لنزهة خارج دمشق فذهبنا لكل من عين الفيجة وبقين وبلودان والزبداني ومررنا بالكثير من الجداول والأنهار والشلالات تنساب مياهها بين المروج والأشجار، فكان لمنظر المياه وهديرها وتدفقها الأثر الجميل في نفوسنا حيث أمضينا يوماً ممتعاً وجميلاً وكنت أردد قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
فتحت جنانك الأنهار تجري ومل، رباك أوراق وورق

وقوله:

آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها الفيحاء بستان

جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقبان
والحور في دمر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان
وقد صفا بردى للربح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنان
خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت إلى الفيحاء وارفة فيها الندى وبها طي وشيبان

إن بردى النهر الجميل تتفرع منه أنهار دمشق ويضفي عليها جمالاً وجلالاً إذ يمر بشوارعها وميادينها حتى يصب في الغوطة وهي التي يعنيها الشعراء في قصائدهم ومن ذلك قول الشاعر:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفني إلى بردى والنيرين حنين

وبعد العودة إلى دمشق كان في انتظارنا في الفندق أحد الإخوان السعوديين المقيمين في دمشق حيث كنا على موعد معه وقد حضر لاصطحابنا إلى منزله فوجدناه قد دعا عدداً كبيراً من أبناء الجالية السعودية فسعدنا بلقائهم والتعرف عليهم وقد أكدوا علينا بضرورة الاستجابة لدعواتهم فاعتذرنا لهم بحجة أن وقتنا قصير وسوف نغادر دمشق قريباً وقمت بزيارة لدار الكتب الظاهرية والمجمع العلمي وجامعة دمشق ومعرض دمشق وغير ذلك من المعالم والآثار.

وفي اليوم التالي ذهبت للسفارة السعودية للسلام على بعض الإخوان

فيها ولقد سألت عن بعض العلماء والأدباء فقيل لي إن أكثرهم موجود في الجامع الأموي وأفضل وقت للقاء بهم بعد صلاتي العصر والمغرب، وبالفعل وجدنا مجموعة طيبة من العلماء والمحدثين يلقون دروسهم وسط مجموعات من طلاب العلم، وخرجنا من الجامع إلى قاسيون لمشاهدة دمشق كلها من عل حيث كانت غارقة في الخضرة والنور والجمال وتتأنق بالزينة وتتأنق بالجمال في لبنان، وودعنا دمشق متوجهين إلى لبنان بطريق السيارات حيث مررنا بالكثير من المصايف ، ولقد أضفى الجمال عليها حللاً من الخضرة والنضرة والزهور يتمثل حقيقة فيما قاله شعراء العرب في الربيع كابن الرومي والبحتري وابن خفاجة، فأينما تدير بصرك لا تجد إلا رياضاً وشجراً وزهوراً.

في لبنان:

ولا غرو إذا افتن شعراء لبنان في وصف لبنان وجمال ربيعه وحقوله، فالجمال يلهم القرائح الخلاقة شعراً تمتزج النفس فيه بالخيال والحقيقة، وبعد أن وصلنا بيروت توجهنا لأحد فنادقها في رأس بيروت وكان الجو معتدلاً وجميلاً وبعد أن استقر بنا المقام قمت بجولات في مختلف أحياء بيروت قديمها وحديثها ومتاحفها وآثارها ومساجدها ومكاتبها.. ولقد حفل تاريخ لبنان بذكريات عديدة منذ قديم الزمان وتصارعت أمم شتى منذ عهد الإغريق والأراميين والفينيقيين والبابليين والآشوريين، فهو عبارة عن تاريخ ضخم حيث مرت عليه أمم ودول وحضارات ومدنيات وعلوم وثقافات، وللبنان تاريخ في عهد الخلافة الأموية والعباسية والدويلات التي تلتها كما أن

موقعه الممتاز أعطاه مركزاً دولياً كما أن طبيعة أرضه الجبلية وقربه من البحر وكونه في مركز متوسط في البلدان التي كانت مهداً لمختلف الحضارات كل ذلك جعل له دوراً وأثراً في تكوين دوره التاريخي.

ويتميز لبنان بجباله فهي ركيزته الجغرافية وعامل حيوي في حياته ولذا فهو يستوي ويجذب إليه الكثير من السائحين كما يمتاز بمغاراته وكهوفه وأنهاره وجباله، ويقول المتنبي:

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وكثيراً ما تحدث اللبنانيون عن الأرز ونظموا القصائد الطوال في ذلك وصار من المعالم السياحية، وكم قرأنا من أشعار وقصائد وكتب حول شجرة الأرز، وجودة أخشابها وطيب رائحتها، وكانت فرصة طيبة أن نذهب لتمضية يوم في الأرز ومشاهدة الثلوج ومنه ذهبنا لبشري، وزرنا بيت أديبها الريحاني وهي تشرف على وادي قاديشيا.. والواقع أن شجرة الأرز شجرة جميلة كما أنها صلبة ولا غرو إذا استعمله الأقدمون وصنعوا منه مراكبهم وسفنهم.

كما قمت برحلات متتالية لجباله ومصايفه والتي تمتاز بالنسيم العليل والمناظر الخلابة والمناخ الجميل والمياه الباردة العذبة، ومن أشهر المغارات مغارة جعيتا وفاديشيا والتي تنفجر منها المياه.

ومن أشهر المصايف:

عالية، بحمدون، صوفر، حمانا – ظهور الشوير، سوق الغرب، برمانا، زحله، خلده، فالوغا، بكفيا، كيفون، نبع الصفا، نبع الباروك، شتورة إلى غير ذلك من القرى والمصايف المنتشرة على سفوح الجبال قد حباها الله بالخضرة والنضرة والجمال.

ولقد أمضيت يوماً كاملاً على ضفاف نهر البردوني في رحلة ممتعة والذي جلس فيه أمير الشعراء شوقي حيث يقول من قصيدة طويلة:

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك

إلى أن يقول:

مرآك مرآه وعينك عينه لم يا زحيلة لا يكون أباك

وذهبنا لعاصمة الشمال طرابلس ذات التاريخ المديد حيث كانت عاصمة لأمم كثيرة وقد كانت تشتهر بوجود المكتبات العلمية فيها وحينما كانت عاصمة لبني عمار كان بها مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد حيث كان ابن عمار حريصاً على جمع الكتب وتوفيرها ولكن الأفرنج خربوها، ثم جاءها الفاطميون وغيرهم وهي الآن المدينة الثانية في لبنان وبها نشاط اقتصادي وازدهار صناعي، وحركة تجارية واسعة.

ومن الشمال قصدنا الجنوب صور وصيدا وجبيل وغيرها من المدن والقرى وهي بلدان ذات شهرة تاريخية وبها قلاع تاريخية قديمة وآثار تحكي تاريخ الأمم الغابرة.. أما بعلبك فقد أمضينا في ربوعها وبين قلعتها يوماً تجولنا فيه بين آثارها التي تمثل المعابد الرومانية القديمة ذات التصميم القوي والإبداع الهندسي.. وحينما كنت أتجول في أسواقها تذكرت القائد البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي فقد تربى فيها حيث كان والده عليها والياً، كما أنها أنجبت العديد من الشعراء والأدباء والعلماء.

إن لبنان بلد تجارة وسياحة وهما أسباب ازدهاره وغناه وليس فيه موارد طبيعية غنية ولكن السياحة والموقع الاستراتيجي ومهارة أهله في ممارسة أساليب الخدمات العامة جعلته يصل إلى هذا المستوى..

زرت الكثير من المكتبات في لبنان والتقيت بمجموعة طيبة من الشعراء والأدباء ممن لهم نشاط ومشاركات علمية وأدبية، وكنت حريصاً على أن تتاح لي الفرصة للقاء مع كبار الأدباء والمفكرين ممن نقرأ نتاجهم وتسمع بأسمائهم اللامعة في الحياة الفكرية ونتابع إنتاجهم وأبديت رغبتي لأحد أصحاب المكتبات فأبدى استعداده حيث أن له صلات عديدة وصداقة وطيدة بحكم اشتغاله بالنشر والكتاب، ولقد حرصت على أن يكون لقائي مع من لهم اهتمام بالأدب العربي وخدمة التراث والثقافة الإسلامية ولقد وجدت منهم كل رحابة صدر وتواضع حيث جرى الحديث عن الأدب والشعر والتراث والتجديد قديماً وحديثاً، واندفاع الكثير من الأدباء والشعراء مع تيار الحياة المادية ورواج الصحف والمجلات والكتب التي تبعد عن واقع الأدب والثقافة الموضوعية الجادة، ولقد سمعت ما أثلج صدري وملأ نفسي تطلعاً من أن هناك حرصاً واهتماماً بالأدب ورفع مستواه ويوجد في بيروت متحف أثري ومكتبة عامة سعدت بزيارتها.

الصحافة في لبنان:

يشتهر لبنان بكثرة صحفه ومجلاته مما يسترعي الانتباه وقليل هي الصحف الجادة الملتزمة ومع هذا فهناك مجلات علمية وأدبية وفكرية وتربوية ويمارس الكتابة فيها كتاب مبرزون وأدباء

مجيدون ممن لهم قدم راسخة في ميدان العلم والأدب، ونأمل أن تتمكن هذه المجلات وغيرها في العالم العربي من الارتفاع بمستوى الأدب والمعرفة ليبلغ أوج الإبداع والعطاء والخلود.

أيام في الأردن:

توجهت مع أحد الأصدقاء إلى عمّان حيث ذهبنا في الصباح إلى مطار بيروت للسفر إلى الأردن على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية اللبنانية، وكانت إجراءات الركوب والسفر في غاية من اليسر والسهولة وركبنا طائرة البوينج ولم يكن يبلغ عدد ركاب الطائرة أقل من نصف مقاعدها، وقد قدموا لنا طعام إفطار في الطائرة وكنت طوال الرحلة في حديث مع أحد الركاب الأردنيين وهو من رجال التربية والتعليم، حيث تجاذبنا الحديث عن الأساليب التربوية الحديثة والتطورات المعاصرة في حقل التعليم حتى نزلنا في مطار عمان، وبعد أن أنهينا الإجراءات المعتادة ركبنا سيارة أجرة من المطار إلى أحد فنادق عمان وكان قائد السيارة على جانب من دماثة الخلق فأخذ يشرح كل ما نمر به من الأماكن والميادين وغيرها، وبعد أن وصلنا الفندق وجدناه في غاية النظافة فشكرنا للسائق خلقه الكريم وبعد الاستراحة في الفندق خرجت في جولة حول الفندق وتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة ثم فوجئت بنزول وابل من المطر فكانت السحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع والرعد يكاد يصم الآذان ، وعدنا لفندقنا مسرعين فلم نتمكن من الخروج فبقينا بين الغرفة وقاعة الفندق نطالع الصحف والمجلات ونتناول الشاي والقهوة.

في فلسطين
وصلاة في المسجد الأقصى

وبعد تمضية أيام في عمَّان زرنا خلالها الكثير من المعالم والآثار والمكتبات ودور العلم والمعرفة، توجهنا صوب القدس وكان ذلك في عام ١٣٨٠هـ لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ثالث المساجد، وقد مررنا بالعديد من القرى والبلدان الفلسطينية ووصلنا القدس وتوجهنا للمسجد الأقصى أولى القبلتين والمسجد الذي يشد إليه المسلمون رحالهم من جميع بقاع الأرض وقد أسرى الله بنبيه محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السماء، ومشينا على أقدامنا بين وسط طرقات مدينة القدس القديمة وبعد أن اجتزنا سوق المدينة وصلنا المسجد ولقد امتلأت نفسي روعة وجلالاً وعبرة وتأملاً وكانت الأبواب مليئة بالناس من رجال ونساء وأطفال قدموا من مختلف المدن والقرى المجاورة فكان الزحام شديداً في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ودلفنا إلى المسجد وأدينا صلاة الجمعة مع الجموع الكبيرة التي امتلأت بها ساحة المسجد فكان مشهداً عظيماً رائعاً، وبعد الصلاة وقفت أتلفت إلى هذه الوجوه الخاشعة في مختلف أرجاء المسجد ثم قمت متجولاً أجيل الطرف في أرجائه وأشاهد قبته وأبنيته المحيطة به كما شاهدت من خلال نوافذه مدينة القدس الجديدة كما يسمونها والألم يعصر القلب ثم أخذت أتنقل بين جنبات الحرم واتجهت إلى الصخرة وكانت مليئة بالناس وقد وصفها المؤرخ المقدسي بقوله:

«لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة» ولقد شاهدت قبة بجوارها تسمى «قبة المعراج» ونزلنا إلى المكان المحيط بصحن القبة ثم خرجنا لمشاهدة أسوار الحرم من الداخل والخارج وهي مجموعة أربطة لطلاب العلم والمدرسين بالمسجد بجوارها متحف بداخله بعض الآثار وانتهى بنا التجوال مع مختلف الآثار حتى عدنا إلى المسجد لأداء صلاة العصر فلما انتهت الصلاة قمت لمشاهدة المنبر ومشاهدة ما يمتاز به من جمال الشكل ومتأملاً ما مر عليه من أمم وقرون وحوادث وعصور متعاقبة، ولقد قال ياقوت في وصفه: وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي أساسه من عمل داود عليه السلام وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه وهو على غاية الحسن والأحكام وطوله ألف ذراع وعرضه سبعمائة وفي سقفه من الخشب أربعة آلاف خشبة وسبعمائة عمود رخام وله ستة وعشرون باباً الخ، وما أكثر ما كتب المؤرخون عن هذا المسجد ووصفه الرحالة في كتبهم، ولبثت في القدس يوماً وليلة زرت خلالها الكثير من المعالم والآثار والأبنية التي شادها صلاح الدين وخلفاؤه وذهب بنا الدليل الذي كان يرشدنا إلى كنيسة القيامة وهي كنيسة أثرية قديمة وسمعنا من المرشد أقوالأشتى عن تاريخها وعن المسيح، وفي زاوية منها مكان يسمونه المذبح وتركنا القدس حيث غدونا إلى البحر الميت وماؤه ملح جداً وبقينا على شاطئه بضع ساعات نتأمل أرض فلسطين وتاريخها الحافل المجيد وذكرياتها التاريخية وما مر بها من جيوش وأمم وحروب ما زالت باقية في صفحات التاريخ والذكريات أعاد الله

فلسطين عربية مسلمة.

وذهبنا بعد ذلك إلى نابلس ورام الله والبيرة والخليل، وغيرها من المدن الفلسطينية واخترنا رام الله للاستقرار والمبيت بها حيث بلغ منا التعب مبلغه وهي مدينة جميلة وهادئة وباردة وقد ذهبنا لتناول طعام العشاء في أحد مطاعمها ثم غدونا نسير في طرقها وشوارعها حتى أدركنا التعب وذهبنا للفندق، وفي الصباح قمت بزيارة للمدن والقرى الفلسطينية ثم ودعنا تلك الربوع الجميلة إلى عمان ومنها إلى دمشق فحلب بلد سيف الدولة الحمداني والتي يقول الشاعر فيها:

كلما رجت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

وفي حلب شاهدنا معالم كثيرة كقلعة حلب التي تقع على ربوة عالية يحيط بها خندق كان يملأ بالماء قديماً كما توجد بها نقوش وكتابات ترجع إلى العهود القديمة، كما يوجد بالقلعة سرداب مظلم يقول المرشد إنه كان سجناً، وفيها مسجد إلى غير ذلك من المشاهد كالجامع الكبير والمكتبة الوطنية التي تحوي نفائس الكتب.. وفي اليوم الثاني قمنا برحلات إلى كل من حمص وهي مدينة زراعية ولها تاريخ مجيد وبها دفن خالد بن الوليد وابنه عبدالرحمن، وعلى نهر العاصي بقينا فترة من الوقت وشاهدنا الماء يتدفق من طواحينها ويقول الشاعر:

ومن حسنها في روضة سندسية تعلق في أطراف أذيالها العاصي

ثم قصدنا حماة ومعرة النعمان والتي يرقد بها شيخ المعرة ثم

عدنا إلى دمشق الفيحاء والتي يقول شوقي فيها:

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغداد

وكما قال الشاعر:

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها فما أطيب اللذات فيها وأهناها

نزلنا بها واستوقفتنا محاسن يحن إليها كل قلب ويهوها

ومنها غادرنا بلاد الشام ونفوسنا مفعمة بتلك المشاهد وأفكارنا مليئة بالذكريات. مردداً قول الشاعر:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون

تحية دمشق الفيحاء

ولعل من المناسب أن أورد قصيدة لي تصف هذه المدينة وتاريخها:

دمشق يا موئل التاريخ والأدب ... ومعقل العلم أزمانا وأزمانا

أتيت من نجدنا شوقا لعاصمة ... تاريخها ناصع مجدا وفرسانا

على رباها تهادى الحسن مؤتلقا ... وعطرها ساحر يهديك ألحانا

همى بها العز بالأمطار دائمة ... وعاد صبحك بالأحلام وسنانا

هي الحضارة تاريخ ومنطلق ... تحدث الناس أجيالا وأزمانا

كم شاعر وأديب قال قولته ... وكنت في قلبهم نبضا وشريانا

بنو أمية تاريخ ومفخرة ... إني لأذكر سفيانا ومروانا

أعلامها من رجال العلم منهجهم ... شريعة أينعت هديا وإيمانا

كم شاد شوقي طويلا في قصائده ... بما لها من جمال شع فتانا

دمشق يا قلعة التاريخ في شمم ... وللعلا صور زادتك ألوانا

تحية لربوع الشام قاطبة ... ردي تحيتنا فلا وريحانا

إلى أرض الكنانة

كانت أولى زياراتي لمصر سنة ١٣٧٨هـ وكانت تلك الزيارة برفقة إخوة أعزاء من أبناء الوطن. وبعد رحلة من الرياض دامت ساعتين وصلنا القاهرة والتي وصفها عبدالرحمن بن خلدون بأنها مدينة المدن.. وحينما استقر بي المقام في رحابها كانت ذاكرتي تمتلئ بالانطباعات الجمة عن تاريخ مصر ومعالمها وآثارها ومتاحفها وعلمائها وأدبائها ونيلها وأهراماتها وحضارتها وما كان لها من ماض حضاري عريق مقترناً بحضارات قديمة في ميادين العلوم والآداب.

والزائر للقاهرة تقع عيناه على أشياء كثيرة ومناظر متعددة ومعالم مختلفة ومن أراد التعمق والدراسة فسيجد بغيته في متحف الآثار المصرية وما يحفل به من آثار تمتلئ بها خزائنه. وكذا دار الآثار العربية وما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخارف ودار الكتب المصرية وقلعة صلاح الدين وخان الخليلي والأزهر.

كان اسم القاهرة «الفسطاط» وقد أسسها عمرو بن العاص عام ٢٠هـ حيث أقام بها جامعه العتيق الذي كان ميداناً لحلقات العلم والدراسة والوعظ والإرشاد، وكم أسهب المؤرخون في وصف مدينة الفسطاط وشوارعها ومنازلها وحماماتها ونيلها الذي يسحر من رآه وينسيه الهموم كما يقولون.

لقد وصف عمرو بن العاص مصر بأنها تربة غبراء وشجرة خضراء يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجري بالزيادة والنقصان.

إن القاهـرة اليـوم مدينة كبـيرة واسعة الأرجاء ممتـدة الأطراف ونمـت نمـواً سريعاً، ولقـد حرصت على زيـارة معالمهـا وآثارها فقمت بزيـارة الجامع الأزهر ولقد كان هـذا الجامع من أوائل الأعمال التي أقامهـا الفاطميون في مصر، وزاد في بنائه كثير من الخلفاء وما يزال يحتفظ بنقوش وكتابات.

لقـد أسهـم الأزهـر إسهاماً فعـالاً في الحفـاظ على اللغـة العربية والثقافـة الإسلامية وصيانـة الديـن الحنيـف ونـال شهـرة واسعـة ومركـزاً مرموقاً في العالم العربـي والإسلامي، وخرجت من الجامع لزيـارة الجامعـة الأزهرية حيث التقيت بعدد من الأساتـذة والعلماء ممن تربطني بهم صلة العلم فقد التقيت خلال تجوالي بين الكليات بمجموعـة من أساتذتي أولئك العلماء الأفاضل، وبعد أن جلست بين قاعاتـه وكلياتـه خرجـت لزيـارة القلعـة التـي اختارها البطـل صلاح الديـن لتكـون مقـراً لـه وسكنـاً وامتـد الحكام مـن بعده حتـى عصر الخديـوي إسماعيـل حينمـا نقل مقر الحكـم إلى مقـر عابدين ولقد طـرأت على مبـاني القلعة تغييرات وإضافـات، وبعد ذلك قمت بزيارة لأحيـاء القاهـرة القديمـة التـي تحتفـظ بطابعها التقليـدي وما زال أكثرهـا يحتفـظ باسمـه القـديم، وصعدت للقلعـة التـي كان قد أمر ببنائها السلطان صلاح الدين الأيوبي على منحدرات المقطم.

وخـلال إقامتـي بالقاهـرة قمت بزيـارات لكل مـن دار الكتب ودار الآثار العربية والأحياء التاريخية القديمة والمتحف المصري وجامعة الـدول العربيـة، والأهـرام، حديقـة الحيوانـات وقصـر محمـد علـي

والمتحف الإسلامي، والمتحف الحربي بالقلعة، وجامعة القاهرة ومكتبتها ومجمع اللغة العربية ويضم بين جنباته مجموعة من أعلام اللغة العربية والأدباء البارزين، ويحرص المجمع على تنقية اللغة العربية وينشر ذخائرها، ووضع معاجم لغوية.. ومن اللافت للنظر كثرة المكتبات المنبثة في أحياء القاهرة إلى جانب المجلات الثقافية المتخصصة في مختلف مجالات الآداب والفنون، ويحظى الكتاب بأهمية المؤسسات الثقافية ودور النشر ولذا فهي تقدم مئات الكتب ذات المستويات المختلفة التي تشد حاجات المتخصصين القراء العاديين في شتى نواحي الفكر والثقافة والعلوم.

وقمت بجولة في أحياء القاهرة وأسواقها الشهيرة بالتحف ذات التشكيلات والفن المتألق من حفر على الخشب والعاج والعظم وغير ذلك من الصناعات الدقيقة المتنوعة، ولعل من أبرز ملامح وجه القاهرة برجها العالمي وقبابها ومآذنها ومبنى تلفازها ونيلها الجاري الجميل الذي عاشت على ضفافه أمم وحضارات. والقاهرة تجمع بين القديم والحديث والذكريات التاريخية والآثار العريقة فالزائر لها سيشاهد كل يوم أشياء قديمة وحديثة وسيجد نفسه في حاجة إلى الوقت ليرى ويستطلع ويقرأ ويشاهد أماكنها ومعالمها التاريخية والأدبية وما أكثر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين أثروا المكتبة العربية بما دونوه وكتبوه عنها وعن نهرها الخالد الذي يجري طويلاً وتنساب مياهه في أرض مصر، ويعتبر من أكبر الأنهار التي تجري في القارة الإفريقية وتعتمد عليه مصر في تحقيق الكثير ممن الموارد

الزراعية والاقتصادية، ومن القاهرة ذهبنا لزيارة الإسكندرية الثغر الجميل والتي أسسها الإسكندر الأكبر قديماً وهي ذات تاريخ عريق حيث عاصرت التاريخ قروناً طويلة، وبعد زيارة لأهم معالمها السياحية وامتاع الذهن والعين بما تحويه من المناظر الرائعة والشاطئ الجميل والمكتبات الغنية بالكتب القديمة والحديثة والمعاجم الموسوعية واصلت الرحلة إلى الإسكندرية والسويس وبورسعيد حيث شاهدنا السفن تمر قادمة من أمريكا والشرق الأقصى واصلت الرحلة إلى الأقصر وأسوان حيث الآثار التاريخية وقمت بجولة في ضفتي النيل الغربية والشرقية استغرقت يوماً كاملاً لزيارة العديد من المعالم الشهيرة مثل الكرنك والأقصر ووادي الملوك وجزيرة التمساح وغير ذلك من المكتبات والمعالم والمتاحف والأسواق والسد العالي في أسوان وآثار بلدة إدفو وجزيرة الفيلة وكان ذلك خلال جولة استغرقت بضعة أيام اشتملت على رحلة نهرية وزيارة الحدائق النباتية والأزهار من كل جنس ونوع وغير ذلك من روائع الآثار والتاريخ في الأقصر وأسوان وستبقى تلك المناظر والآثار في الذاكرة فترة طويلة حيث تنطوي على الكثير من الجمال والأصالة والتاريخ العريق. وهكذا كما قيل:

كم سجل التاريخ عن أمجادها صورا يتيه بها الخلود ويطرب
جعل الكنانة قلعة أركانها تخشى من الباغي الحقود وترهب

وقيل:

فنهر النيل يسحر من رآه وينسيه الهموم القاتلات
على جنباته سفن تهادى تراها غاديات رائحات

في مجمع اللغة العربية وخدمة الفصحى

عندما حللت في مدينة القاهرة بتاريخ ١٥/٧/١٤١٤هـ لحضور حفل جائزة الإبداع الشعري، وتوزيع جوائزها على الفائزين بها، والمشاركة في ندوة محمود سامي البارودي، والتي شهدها عدد من الكتاب ولفيف من الأدباء، ونخبة من المثقفين العرب من خلال دراسات تناولت مختلف جوانب إبداعية شعراً ونقداً، والتي أعطته مكانته الرفيعة في دنيا الشعر من قبل مجموعة من الباحثين والنقاد في الوطن العربي، وقد كان حفل الجائزة، وندوة الشاعر محمود سامي البارودي مهرجاناً حافلاً ضم أدباء ونقاداً من جميع أقطار العالم العربي في لحظة تاريخية فكرية.

ولعل أجمل ما تتيحه مثل هذه الندوات ليس فقط الحوارات حول موائد البحث المستديرة بل الأحاديث الجانبية والتعارف بين الأدباء، وقد كان هذا الشعور يطرح في هذه الأحاديث الجانبية للتعرف على حركة الشعر والأدب، وتشجيع التواصل بين الشعراء والأدباء والمهتمين بالشعر العربي قديمه وحديثه، وتوثيق الروابط بينهم، كما يجري تناول موضوع القصيدة من عدة جوانب في حوار بناء وطرح موضوعي.

وعندما انتهى ذلك الحفل، وتلك الندوة رأيت الاستفادة من وقتي في زيارة «مجع اللغة العربية في القاهرة» أحد القلاع الحصينة للدفاع عن اللغة العربية بحي الزمالك، ومقابلة أمينه العام، والأخوة العاملين في الأمانة العامة والمكتبة، والذين غمروني

بمشاعرهم الطيبة، ومنحوني جزءاً من وقتهم للتعرف على هذا الصرح اللغوي العتيد والتجول في قاعاته ومكاتبه فكان لقاءً ممتعاً ومفيداً، حيث اطلعت على الجهود المخلصة التي يبذلها المجمع، وعلى البحوث والدراسات التي تستهدف النهوض باللغة العربية، والانطلاق بها إلى آفاق الحياة الواسعة في كل المجالات، ولقد قال الأمين العام للمجمع الدكتور: إبراهيم مدكور: إن المجمع يؤمن بأن اللغة العربية يجب أن تتطور تطوراً يساير حركة الانبعاث، ،اللغة كائن حي ينمو ويتطور شأن كل كائن في الوجود، وأن اللغة العربية شأنها في هذا شأن أي لغة أخرى تنمو وتتطور، فقلت: إن الأمل كبير في المجمع، وفي عمله، ونشاطه، وإنتاجه، وما رأيت من الكتب والبحوث والدراسات المستفيضة، والعمل في إطار لا يخرج باللغة عن أوضاعها الجوهرية السليمة، ليجعلني ازداد فخراً وإعجاباً وتفاؤلاً بدور المجمع في خدمة اللغة، وجهوده المتصلة في وضع المصطلحات العلمية في شتى العلوم والفنون، وقلت: إن أبناء الأمة العربية والباحثين والغيّر على اللغة العربية يتابعون نشاط المجمع، ويستجيبون بوجه عام لقرارات المجمع، ويأخذون بمقرراته، والكثيرون من رجال اللغة أخذوا عنه، وأفادوا منه، ونأمل نشر المصطلحات العلمية التي يقرها المجمع في مختلف العلوم والفنون، وإن نشر بحوث المجمع وقراراته وإذاعتها بين الناس فيها فائدة لكي يقفوا عليها للاستفادة منها.

وبعد طرح مجموعة من الأسئلة حول المجمع ودوره في

خدمة اللغة العربية وتوحيد المصطلح العلمي وتيسير النحو التعليمي وتحقيق الازدهار للفصحى وخلافه وإجراء حوار خصب ومناقشة دسمة حول أهمية الفصحى وإنجازات المجمع وما أخرجه من معجمات، منها: كتاب «الجيم للشيباني» وكتاب الأدب للفارابي والتكملة والذيل للصاغاني، وعدا ذلك من الكتب: كالمعجم التاريخي والمعجم الحديث ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، والمعجم الوسيط، وغيرها من المعاجم العلمية المتخصصة إلى جانب كتب ومراجع متخصصة في أصول اللغة والألفاظ والأساليب فضلاً عن مطبوعات خاصة ومجلة دورية ومكتبة غنية بالكتب والمراجع وحافلة بالمطبوعات النفيسة في اللغة وفي جميع فروع المعرفة وجهود المجمع في الوقوف في وجه دعاة العامية، وحماية اللغة العربية، وتقرير دورها واستخدامها في وسائل الإعلام وتقرير دور المجمع في سرعة نشر المصطلح العلمي والحضاري، ونشر البحوث والدراسات، وتوسيع نطاق توزيع مجلته، وإخراجها على النحو الذي ينشده الجميع، والعمل على إحياء التراث، وتحقيق كتبه وتوطيد العلاقة الثقافية مع المؤسسات، والهيئات العلمية المختلفة في أرجاء الوطن العربي، خرجت وكلي أمل وتفاؤل بالمستقبل، وتحقيق طموح المخلصين والمحبين للغة العربية ورفعتها وعلو شأنها، والتي هي أمنية لكل عربي من مشرق الوطن العربي إلى مغربه، فهذا المجمع وغيره من المجامع قنوات واسعة للمعارف والعلوم والآداب، وروافد ثرة

لبلوغ الغايات المرجوة بتوفيق الله، ولقد أوحت لي زيارة المجمع معقل اللغة العربية بهذه القصيدة، وهي اعتزاز بهذا الصرح اللغوي العظيم الذي يواصل رسالته الجليلة في الحفاظ على اللغة العربية، وتراثها الخالد، وهي:

مجمع الخالدين مني سلام ... دمت ذخرا وقوة ومقاما
موئل الضاد قد أضأت سراجا ... وأشعت البيان نورا تماما
قلعة الفكر والبلاغة مهدا ... قد رعيت العلوم والأفهاما
شدت للضاد منبرا ومكانا ... وصروحا تبدد الأوهاما
نخبة ها هنا تروم علوا ... واهتماما وغيرة واعتزاما
خدموا الضاد والمعارف طرا ... وأناروا البيان والأعلاما
طبت دارا رفيعة ومكانا ... يا عظيما يطاول الأهراما
أنت فخر ومجمع لرجال ... رفعوا الضاد عزة وسناما
وفق الله سعيكم وجزاكم ... كل خير وزادكم إلهاما

أيام في السـودان

بصحبة معالي الرحالة الشيخ محمد العبودي كنت ممثلاً لوزارة المعارف في زيارة السودان وكان مما زاد في إضفاء رداء السعادة في نفسي في تلك الرحلة أني كنت في صحبة الشيخ محمد وإخوة أعزاء .

وفي صباح يوم الأحد الموافق ٢٠/٤/١٣٩٥هـ حطت الطائرة في مطار الخرطوم بعد رحلة استغرقت ساعة من جدة، ولقد حرمنا الطيران في الليل من الاستمتاع بجمال البحر الأحمر ومشاهدة موانئه، وبعد استراحة من عناء السفر والسير حيث أصيبت الطائرة بعطب أخَّر سفرها خمس ساعات..

توجهنا صوب العاصمة التي كانت في منتهى الهدوء إذ لم تستيقظ بعد واخترقنا شوارع العاصمة ذات الأشجار الكثيفة حتى وصلنا إلى فندق السودان.. ولعل مما يلفت النظر أن أغلب البيوت من طابق واحد مما أضفى على المدينة انفتاحاً واتساعاً وصفاء بعكس أغلب مدن اليوم الكبرى التي تعددت فيها ناطحات السحاب فحجبت الرؤية وتلوث جوها بالهواء الفاسد، وبعد استراحة في الفندق ودعنا مرافقنا المكلف من قبل وزارة التربية والتعليم باستقبالنا ومرافقتنا بعد أن ناولنا برنامج الزيارة وكان حافلاً بزيارة مختلف المؤسسات التعليمية والثقافية، كما تجولنا في مناطق متعددة وزرنا مجموعة من المدارس وجامعة الخرطوم والجامعة الإسلامية في أم درمان والمعهد الديني والمركز الإسلامي الإفريقي ومعهد تعليم اللغة

العربيـة وبعض المكتبات، كمـا قمنا بجولة على المدن والقرى المجاورة للعاصمة.. بعد زيارة الخرطوم وأم درمان والوقوف على ضفة النيل ومشاهدة مياهه وكم يغري المرء السير في شارع النيل والتمتع بمنظر الميـاه التـي أضفت على المكان روعة وجمـالاً وقد غرست الأشجار على جانبيه.

على مائدة السفارة:

كـرم سعـادة السفـير السعودي عـرب هاشم فدعانـا إلى حفلة دعا إليهـا عـدداً من العلمـاء والأدباء والمشايـخ في السـودان بالإضافة إلى أعضاء السفارة السعودية والمكتب الثقافي، وكانت فرصة طيبة تبادلنا خلالها الأحاديث.. والمعلومات عن السودان قديماً وحديثاً.

رحلة على ضفاف النيل:

قامـت وزارة التربية والتعليم هناك مشكـورة بتنظيم رحلة نيلية جميلـة ومشاهـدة النيلـين حيث يلتقـي النيل الأزرق بالنيـل الأبيض ويختلطـان في روعـة بالغـة. وكان الجـو ربيعـاً جميلاً، ولقـد شاهدنا ونحن على ظهر المركب العاصمة السودانية المثلثة وهي تتكون من أم درمان والخرطوم والخرطوم بحري، ومدينة الخرطوم مدينة حديثة جميلـة التخطيط بديعة التنسيق، ولقـد أضفت الجسور المقامة على جوانبهـا روعة وجمـالا.. وهذه الجسور جعلت من المدن الثلاث حيث يلتقـي أطـراف بعضها ببعض كأنها مدينة واحـدة.. ورغبة في تزجية الوقـت كان الحديـث عـن هـذه الـثروة المائيـة الهائلـة وعـن الزراعة والماشية وامتداد الإسلام في القارة الإفريقية وما يملكه السودان من

ثروة زراعية وحيوانية هائلة.

ولقد بقينا على ظهر المركب أكثر من أربع ساعات رغم سيره السريع.. ولقد راعتنا عظمة النيل واتساعه وضخامته وما يفيض به من مياه هائلة، ولقد لفت نظري وأنا أرنو ببصري يميناً ويساراً على جوانب النيل قلة المزارع والبساتين على ضفاف النيل المتدفق بالمياه الغزيرة وسألت الإخوة السودانيين الذين كانوا معنا في هذه الرحلة النيلية قائلاً : علام الأرض عارية من الخضرة بينما الماء كما نرى غزارة وعذوبة وامتداداً..؟ فقال محدثي: إن ذلك يعود إلى قلة الإمكانات إذ أن المال والخبرة مهمان في عملية الاستثمار. وقال آخر: إن السودان يحوي أراضي خصبة لو استثمرت لكفت العالم العربي غذاء. فقلت: حمداً لله وشكراً الذي رزقنا هذه الموارد الطبيعية الهائلة .. وبعد أربع ساعات أمضيناها على ظهر المركب وصلنا إلى جبل الأولياء وعلى شكل هضبة مرتفعة حيث توجد به خزانات المياه وتوجهنا إلى جامع البلدة لتأدية صلاة الجمعة.. ولقد غمرنا ممن وجدناهم بالسلام والتحية وكانت الكلمات تخرج من شفاههم مليئة بالحب والمودة.

ويمتاز هذا الجبل بوجود الأشجار والظل الوارف واصطياد الأسماك فهو من متنزهات العاصمة حيث يقضي الناس فيه عطلتهم الأسبوعية..

ولقد لاحظت خلال التجوال على شاطئ النيل وجود عدد من الصيادين في زوارقهم يبيعون الأسماك الطازجة بأسعار زهيدة..

وبعد أن أمضينا وقتاً بين قمة هذا الجبل وخزانات المياه وساحل النيل قفلنا راجعين إلى العاصمة..

ولكم يوحي النيل بالجمال فكم تغنى به الشعراء وأبدعوا في وصفه حيث ترك الشعراء قديماً وحديثاً تراثاً غزيراً من الشعر حول ذلك، ولكم تفنن شعراء مصر والسودان في وصف النيل فجاءت أشعارهم مفعمة بالرقة والعذوبة ومليئة بالجمال.. والجلال في وصف النيل ومرابعه.. ومباهجه.. لقد كان منظر النيل فاتناً. أوحى إلي باستعراض شريط من ذكريات المؤرخين والرحالة والشعراء.. وما أثار فيهم من عاطفة وإحساسات جمالية ولقد طوى الزمن تلك الذكريات في جوف أمواجه.. حقيقة إن منظر النيل ليولد في النفس إحساساً عميقاً بالجمال كما أن هذا الإحساس يطلق العنان لخيالات الشعراء والأدباء والفنانين ففي هذه الربوع السودانية الجميلة الثرية بنهر النيل والتربة الخصبة إمكانات واعدة لتحقيق تنمية مليئة بالرخاء والازدهار. حقق الله الآمال مردداً قول أبي الطيب وأنا المحب لشعره:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

في تـونـس

زرت بلدان المغرب العربي عدداً من المرات وتجولت فيها كثيراً.

وفي صباح يوم الجمعة الموافق ١٠/١/١٤٠٠هـ غادرت مطار الرياض متوجهاً إلى تونس البلد العربي الإسلامي الشقيق وهبطنا في مطاري جدة وطرابلس وواصلنا السفر بعد ذلك إلى تونس، وكنت أشاهد من الجو الشواطئ الجميلة المترامية والمزارع الواسعة والمراعي الخضراء والغابات الكثيفة، ولا شك أن موقعها وسط حوض البحر الأبيض المتوسط أضفى عليها ذلك الجمال والمناخ الطيب والثروات الطبيعية والأثرية، فكم نشأت على شواطئ هذا البحر من مدنيات وحضارات وماض زاخر بالعطاء والإبداع فقد استوطنها الفينيقيون والرومان قبل الفتوحات الإسلامية.. ولقد كان بجواري في المقعد أحد الإخوان التونسيين فسألته عن تونس وعن جامع الزيتونة وجامع عقبة وغيرها من الأماكن الأثرية القديمة التي ارتفع عليها صرح اللغة العربية والثقافة الإسلامية في تونس فاسترسلنا في الحديث مردداً قل الشاعر العربي:

هات الحديث فإنني أصبو إلى ... أنباء تونس من صميم القلب جدا

وقول القائل:

دريت حقا وما أدراك أني من ... حر اشتياقي إلى الخضراء في ضجر

هناك ما شئت من علم ومن أدب ... ومن حدائق تؤتي أطيب الثمر

فلقد استمر هذان الجامعان يخرجان للناس أكابر العلماء والفقهاء والمؤلفين كالإمام سحنون واللخمي وموسى بن عمران، المارزي وغيرهم، وأخذت مع محدثي نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب حتى قطع علينا الحديث صوت مضيف الطائرة منبئاً بالاستعداد للهبوط وشاهدت المدنية من عل غارقة في الخضرة وترصعها البيوت البيضاء المختلفة الأحجام والأشكال إلى جانب منظر البحر ثم هبطنا في مطار قرطاج.

وبعد الانتهاء من إجراءات المطار المعتادة توجهت صوب فندق البحيرة، وبعد الاستراحة وتأدية صلاتي الظهر والعصر جمعاً، خرجت من الفندق أتجول في شوارع المدينة ووصلت في سيري إلى شوارعها الرئيسية كشارع الحبيب بورقيبة وشارع محمد الخامس وشارع الحرية، وكان في جيبي خريطة المدينة وكانت كبيرة ومصورة مما سهل لي الانتقال والوصول إلى بعض الأماكن والميادين، وكان الطقس لطيفاً يغزي بالنزهة ولكنه في اليوم الثاني غائماً ومنذراً بالمطر والبرد، وحينما كنت أتجول في المدينة أعجبتني متاجرها ومعروضاتها الحسنة التنسيق وشوارعها الفسيحة وعماراتها الشاهقة المتألقة بهندستها العربية الأندلسية ومقاهيها المتناثرة على الأرصفة، ومضيت متجولاً في المدينة حتى وصلت إلى المدينة القديمة فسألت عن جامع الزيتونة ومشيت وسط دروب وبيوت قديمة تحكي الماضي فذكرت قول الشاعر:

عيني ترى الماضي فتبكي له يا ليت ماضينا هو الحاضر

وفي الطريق إلى الجامع توجد المتاجر التي تعج بمختلف أنواع البضائع والتحف والصناعات الأندلسية والتونسية، إلى جانب المكتبات التي تحفل بكتب التراث والثقافة المعاصرة إلى جانب البيوت الصغيرة المتراصة وسط دروب ضيقة وكلها مطلية بالدهان الأبيض فهي ناصعة من الخارج ووسط هذه الأسواق الشعبية يتضرع عبق البخور والصندل في أزقتها الضيقة وتزينها الألوان الزاهية وجامع الزيتونة أهم معلم ديني في تونس.

ووصلت الجامع وله ستة أبواب وبه ٣٥٧ عموداً، ولكم قرأت عنه وسمعت حديث من زاروه ورأوا روعته وفيما كنت في الطريق إليه كان الخيال يزوق لي صوراً شتى حتى وصلت إلى باب الجامع فأخذت صورة الخيال تضاءل شيئاً فشيئاً ليحل محلها الواقع وبعد أن صليت مع جموع المصلين صلاة المغرب قمت بالتجول وسط الجامع، ويعتبر آية في الفن المعماري والزخرفة الإسلامية ومجهز بالثريات مما زاده نوراً وتألقاً حيث حلقات الدرس مما يذكر بماضيه حيث كان محط رجال طلاب العلم وخرج منه رجال يشار إليهم بالبنان في سعة العلم وتحقيق البحث وأخذ اسم هذا الجامع يتردد على الألسنة والآذان، ولقد بنى هذا الجامع في سنة ١٤٤هـ وبناه حسان بن النعمان، ثم قام الأمير الأغلبي إبراهيم بن الأحمر بإعادة بنائه من خصائص هذا الجامع قاعته الكبيرة التي تحتوي على ما لا يقل عن ١٨٤ عموداً وكان هذا الجامع يمثل فيما مضى إلى جانب نشاطه الديني مركزاً سياسياً واقتصادياً تبرم فيه العقود كما أن شهرته كجامعة ومنارة

للعلم قد تخطت حدود البلاد يقصده طلاب العلم من كل أنحاء العالم الإسلامي ، ولقد جرت توسعته على يد الكثير من الخلفاء وقد كانت أرضيته التي أقيم عليها مملوءة باشجار الزيتون، وفي أواخر أيام الحفصيين احتل الأسبان تونس ودخلوا الجامع بخيولهم ونهبوا الكتب وأحرقوها.

وخرجت من الجامع متجولاً في حي القصبة وسط أسواقه الضيقة ويسمى بالحي العربي ولقد شاهدت مجموعة من السياح من شتى الأجناس يشترون مختلف الهدايا والتحف التونسية ولا غرو فتعتبر تونس من الأقطار السياحية الغنية بالآثار التاريخية ففيها يشاهد المرء نماذج من الحضارة الإسلامية والبيزنطية والفينيقية فضلاً عن جمال الطبيعة واعتدال المناخ..

ثم قمت بزيارة للسفارة السعودية وللمكتب التعليمي السعودي ولقد سررت كثيراً بمشاهدة أفواج من الطلاب يرتادون مكتبته ويطالعون الكتب الموجودة فيه ويستفيدون من ذلك خلال كتابة بحوثهم، وبها عدد من الكتب والمؤلفات السعودية وقد أهديت لأمين المكتبة مجموعة من المؤلفات والكتب السعودية كما التقيت بالصديق الأستاذ/ محمد الرشيد الماجد وقد مكث في تونس سنوات عديدة وله صلات وصداقات بالكثير من العلماء والأدباء فأتاح لي فرصة اللقاء بعدد من العلماء والأدباء والمشتغلين بالتربية والتعليم فكانت لقاءات طيبة ذكرتني بأدباء تونس القدامى من أمثال المعز بن باديس والحسن بن رشيق والحصري وابن عبدون وعلي الحصري صاحب

قصيدة:

يـا لـيـل الـصـب مـتـى غـده أقـيـام الـسـاعـة مـوعـده

وإذا ألقينا نظرة على المكتبة التونسية وجدناها تحفل بكتب ومؤلفات في مختلف ميادين العلم والأدب والشعر مما يدل على نهضة أدبية واعية، كما أن الصحف والمجلات تجسد نشاطاً أدبياً وتساير النهضة الحديثة شكلاً وموضوعاً.

كما قمت بزيارة للمتحف والمكتبة وبوابات المدينة وبعض الآثار القديمة وخرجت للنزهة والاستجمام لضواحي العاصمة فوجدت مشاهد خلابة ومناظر طبيعية جميلة هادئة ومن تلك الضواحي:

حمام الأنف – سيدي أبو سعيد – حلق الوادي – الزهراء – رادس – المرسى – بابل – زغوان – وقمرت وغيرها من البلدان والمنتزهات وحمامات والمصايف والمرافق السياحية.

وكلها تطل على البحر وبها فنادق ومطاعم وشواطئ جملية، وكان المطر ينزل خفيفاً حينئذ والسماء متلبدة بالغيوم فمضينا وسط غابات رائعة من الأشجار، وتوجهت بعد ذلك لزيارة مدينة سوسة ذات الشواطئ الجميلة ومنها إلى القيروان وخلال الطريق كنت أردد قول شاعرها عبدالرحمن بن زياد وقد عزم على العودة إليها من بغداد حيث يقول:

ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق

مسيرة أشهر للعير نصا وللخيل المضمرة العتاق

وتبعد مدينة القيروان عن تونس ١٦٠ كيلاً وعلى امتداد الطريق

الخضرة والأشجار والمناظر الطبيعية الخلابة.

وبعد أن وصلت القيروان تذكرت تاريخ هذه المدينة حتى طارت شهرتها في كل مكان نظراً لما كان فيها من أئمة العلم والثقافة الإسلامية منذ الفتح للمغرب العربي،ولكم تتلمذ الكثير من أبنائها على الإمام مالك – رحمه الله – وسمعوا منه الحديث ورووا عنه مذهبه في الفقه وكثر القاصدون إلى هذه المدينة والآخذون عن علمائها وأدبائها من أبناء الأندلس والمغرب وإفريقية.. وما زال جامع عقبة بعد صلاة المغرب يموج بحلقات الدرس والعلم ويؤمه طلاب العلم من نواح مختلفة مما يذكر بماضي علماء هذه المدينة، ورغم ما مر بهذه المدينة من أحداث وغارات أجنبية فقد بقي أبناؤها محافظين على عقيدتهم ودينهم وتراثهم.

ومن جامع عقبة ذهبت إلى جامع أبي زمعة البلوي ثم إلى سور المدينة القديم وموضع آبار المدينة التي كانوا يجلبون الماء منها ثم طفت في أسواقها وما زالت على طابعها القديم وتمتلئ بالتحف والصناعات الأندلسية إلى جانب صناعة السجاد والغزل والنسيج، ولا غرو فأرض تونس الخضراء خصبة جداً حيث يزرع الزيتون بكميات كبيرة وكذلك الحبوب والفواكه وأشجار النخيل وبساتين الزيتون والكروم والليمون وهي اليوم مقصد السواح من كل أنحاء المعمورة.

أما مدينة القيروان فهي مدينة تاريخية تحتفظ بطابعها القديم وبتراثها العريق، وقد أسسها البطل العربي المسلم عقبة بن نافع رحمه الله، ولكم رددت وأنا أتجول في ربوعها وبين أحيائها قول

شاعرها القديم:

فهل للقيروان وساكنيها عديل حين يفتخر الفخور

بلاد حشوها علم وحلم وإسلام ومعروف وخير

عراق الشام بغداد وهذي عراق الغرب بينهما كثير

بلاد خطها أصحاب بدر وتلك اختط ساحتها أمير

وبعد ذلك ودعت هذه المدينة الخالدة وأنا أحمل أسمى المشاعر الإسلامية الأخوية ورجعت للعاصمة ومنها ودعت تلك الربوع مردداً هذا القول:

فتونس تونس من زارها ويدركه أنسها حيث سار

القيروان عبق المجد وذكريات التاريخ

لقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعنى به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ، وما زالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدراً للتعرف على أحوال الأمم وثقافة الشعوب كما أن للرحلات أهميتها في اكتساب الخبرات واقتباس المعارف في شتى المجالات.

والرحلات مصدر للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع وفيها قدرة للمقتدي بحيث يستفيد منها العظة والعبرة والفائدة ويترك الأثر الحسن بما شاهد ورأى.

ويحرص كثير من الناس على الاهتمام بأدب الرحلات حيث إن الرحالة دائماً ينقل للقارئ صوراً وقصصاً وطرائف ومشاهدات لكل ما شاهد وسمع ورأى، وما أكثر ما حفل به التراث العربي الإسلامي من أخبار الرحلات والرحالة، كرحلة ابن فضلان إلى إسكندنافيا التي اعتبرت أقدم تسجيل كتبه شاهد عيان عن حياة ومجتمع «الفايكنج» فهي وثيقة فريدة تصف بدقة أحداثاً وقعت منذ أكثر من ألف سنة، ولقد وصفت تلك الرحلة بأنها المصدر الوحيد لتاريخ روسيا وبلغاريا وتركيا في تلك الفترة من القرن العاشر الميلادي، كذلك رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى المدينة، ورحلة أبي دلف، ورحلة ابن جبير، ورحلة العبدري، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن خلدون، ورحلة العياشي وغيرهم كثير مما يضيق المجال عن

استعراضه، فكم فيها من الصور والمشاهدات التي أصبحت تاريخاً ومعرفة وفائدة للباحثين والدارسين بل وثائق تمثل نشاط أسلافنا وطموحاتهم وارتيادهم للمجهول ومعرفة العالم وطلب العلم والمعرفة ورواية الأخبار والأحاديث من أفواه الرجال وكم تفيض كتب التاريخ والحديث بالروايات والأخبار والقصص عن المحدثين الذين قاموا برحلات بصدد جمع الأحاديث وتدوينها، وكذلك كان الرحالة يذهبون ويرتحلون من أجل التجارة والالتقاء بالعلماء والأدباء والمؤرخين والأطباء ووصف طريق الحج والمشاعر المقدسة والحرمين وما بهما من آثار ومعالم وعلماء ومخطوطات وأماكن ومساجد ومكتبات، وما أعظم ما كتبه الرحالة ابن بطوطة في كتابه «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأشعار».

لقد حفل التراث العربي الإسلامي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول السفر والرحلات وإن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً وذا عطاء علمي غزير بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والبحث الاجتماعي مع تطعيمه بمأثور الشعر والحكم مما تقتضيه المناسبة.

ويطيب لي أن أستعرض رحلة قمت بها إلى مدينة القيروان حيث حرصت على زيارة القيروان التي فتن المؤرخون والجغرافيون عبر قرون الفتح الإسلامي بذكر خصائصها الطبيعية والبشرية وتتميز بمساجدها ومعالمها التاريخية فهي إحدى المدن التاريخية وكانت

منارة تعليم وملاذاً للعلماء ومركز إشعاع حضاري في شمال إفريقيا وهي مدينة قديمة تقع في منطقة صحراوية وزرعت بالقرب منها بساتين الزيتون.

وتونس ورثت حضارة الأندلس ومدينة القيروان كمدينة تاريخية تحتفظ بطابعها القديم وبتراثها العريق فهي عاصمة حضارة وحاضرة فكر وتشتهر بأعظم أثر في بلاد المغرب العربي وهو جامع عقبة بن نافع.

وقد أسسها البطل المسلم عقبة بن نافع – رحمه الله – قاعدة للجهاد وارتبط اسمه بها في عام خمسين هجرية وكم ردَّدت وأنا أتجول في ربوعها وآثارها وبين أحيائها قول أحد شعرائها القدامى:

فهل للقيروان وساكنيها ... عديل حين يفتخر الفخور

بلاد حشوها علم وحلم ... وإسلام ومعروف وخير

عراق الشام بغداد وهذي ... عراق الغرب بينهما كثير

بلاد خطها أصحاب بدر ... وتلك اختط ساحتها أمير

وتبعد مدينة القيروان عن تونس ١٦٠ كيلاً وعلى امتداد الطريق الخضرة والأشجار والمناظر الطبيعية الخلابة لقد كان لها تاريخ حافل ومجد خالد وطارت شهرتها في كل مكان نظراً لما كان فيها من أئمة العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية منذ الفتح الإسلامي للمغرب العربي وكم تتلمذ الكثير من أبنائها على الإمام مالك – رحمه الله – وسمعوا منه الحديث ورددوا عنه مذهبه ومن علمائها سحنون بن

سعيد وبرزت المدرسة الفقهية القيروانية بعلمائها وقضائها وكثر بها الفقهاء وكثر القاصدون إلى هذه المدينة والآخذون عن علمائها وأدبائها من أبناء الأندلس والمغرب وإفريقية ولقد شاهدت جامع عقبة يموج بحلقات الدرس بعد صلاة المغرب ويؤمه طلاب العلم ورواد المعرفة مما يذكر بماضي هذه المدينة ودور علمائها ولقد مرت هذه المدينة بحقب تاريخية مختلفة وغارات أجنبية وصمدت في وجه الغزاة وما زال أبناؤها محافظين على عقيدتهم الإسلامية وتراثهم الخالد ولقد قال الشاعر عبدالرحمن بن زياد وقد عزم على العودة إليها من المشرق:

ذكرت القيروان فهاج شوقي ... وأين القيروان من العراق
مسيرة أشهر للعير نصا ... وللخيل المضمرة العتاق
فبلغ أنعما وبني أبيه ... ومن يرجوا لنا وله التلاقي
بأن الله قد خلى سبيلي ... وجد بنا المسير إلى فراق

ولقد تأسس بها بيت الحكمة حيث جمع الأمراء الأغالبة مشاهير العلماء وكان به قاعات فسيحة ومكتبة عامرة وكان مكاناً للمناظرات.

لقد كانت القيروان نقطة الانطلاق خلال الفتوحات لبلاد المغرب وإفريقية والأندلس حيث انطلق منها عقبة بن نافع والمجاهدون المسلون وكان لهذه المدينة دور عظيم وأدت خدمات جليلة للمسلمين وترسيخ الحضارة الإسلامية ورحم الله عقبة بن نافع القائل «إن إفريقية إذا دخلها أمير تحزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا

إلى الكفر وإني أرى أن أتخذ بها مدينة تجعلها معسكراً وقيروانا».

وتمتد علاقة الحضارة الأندلسية بالقيروان من تاريخ فتح الأندلس سنة ٩٢هـ وزاد في هذه العلاقة هجرة أدبائها وعلمائها فكانت مركز إشعاع يستقطب الشعراء وكان جل علماء الأندلس يتعلمون بالقيروان وكانت كتب ومؤلفات علمائها تقرأ في الأندلس في مجالات شتى في الفقه واللغة والآداب والبلاغة والشعر مما كان له تأثيره في أصول الثقافة الأندلسية كما أن القيروان كانت تعج بالأندلسيين في القرن الثالث والرابع الهجري وكان جامعها منارة علمية وذكر المؤرخون أن الأندلسيين حضروا للاستماع من أبي الحسن القابسي كما صور أبوبكر بن العربي تلهف الأندلسيين لطلب العلم في جامع القيروان ذكر ذلك المقري في «نفح الطيب» كما نزل بها أبو علي القالي ومعه كمية كبيرة من كتبه وهكذا طارت شهرتها وذاع صيتها العلمي والتاريخي حتى حلت بها المصائب مما جعل الشاعر ابن شرف يتمنى أن يكون طائراً حتى يرى ما آلت إليه القيروان بعد محنتها في ذلك العصر وتتردد في سمعه أنباء التخريب فيتذكر عمرانها وأدباءها وشعراءها في قصيدة طويلة منها:

يا قيروان وددت أني طائر ... فأراك رؤية باحث متأمل

آها وأية آهة تشفي جوى ... قلب بنيران الصبابة مصطلي

أبدت مفاتيح الخطوب عجائبا ... كانت كوامن تحت غيب مقفل

ومن شعرائها أبو الحسن بن نضال القيرواني وقد جمع له ابن بسام بعض الأبيات عن القيروان منها قوله:

لله منزلة بالقيروان محا أيامها البين لا الأيام والقدم
شققت جيب شبابي بعد فرقتها حزنا عليها ولا شيب ولا هرم

وهكذا كان لها دور في الحضارة العربية الإسلامية في إثراء الأدب الأندلسي فهي مركز من مراكز العطاء التاريخي والثقافي امتد تأثيرها عبر المحيط إلى صقلية وتجاوز غرباً إلى أقاصي المغرب الأندلسي.. ولقد كانت الثقافة الإسلامية في القيروان ذات سمة متميزة وحب للعلم والأدب والشعر ونبغ بها رجال وترجمت كتب في علوم كثيرة مختلفة وما زال جامع عقبة بن نافع باقياً خالداً بفنائه الفسيح ومئذنته العملاقة وساعاته الشمسية ومسجده الكبير ذي الأعمدة الكثيرة والمحراب الأثري الدقيق الصنع، وبعد تمضية أيام ممتعة مفيدة في ربوع القيروان الحافلة بالآثار والمعالم العربية الإسلامية التي توحي بالعظمة والكبرياء وبما كانت عليه هذه المدينة التاريخية في عصورها الزاهرة وماضيها المجيد.

وودعت تلك الربوع بهذه القصيدة:

من وحي زيارة مدينة القيروان ٢٤/٤/١٤١٥هـ.

على طائر اليمن سار السنا يشق الفضاء بعزم أبي
وبالشوق جئت إلى القيروان مشوقا إلى البلد الطيب
وغرد شعري بأرضي الكماة وأشرق كالمنهل الأعذب
سلام على وطن الفاتحين حداة البلاد إلى الأصوب
إلى من دعا للعلا والجهاد إلى عقبة الفاتح اليعربي

فقد وحد الصف في قوة ... وساروا بعزم إلى المغرب
وفي القيروان لهم صولة ... رجال العزيمة والمأرب
أكاد أرى وقع أقدامهم ... تمر من الجسر للمركب
وسلوا السيوف من أغمادها ... لنشر تعاليم نهج النبي
وفي كل شبر لهم موقع ... عليه خطى القائد المعجب
صروح من العلم ضاءت بهم ... ودامت دهورا ولم تغرب
بنوا أمة مجدها شامخ ... وراحوا بعزم إلى الأصعب
وكان لهم هدف واحد ... وأشرق وجه دنى المغرب
أولوا العزم شادوا منار الهدى ... لعب النمير من الأعذب
وإني أحيي جميع الصحاب ... بأبهى التحيات من يثرب

في الجزائر

ما كان أسعدني أن أندب ضمن من ندب بعد استقلال الجزائر للإسهام في عملية التعريب وتدريس اللغة العربية وآدابها والتربية الإسلامية فلبيت النداء سعيداً بأن أكون مدرساً في تلك الربوع التي بقيت فترة طويلة ترزح تحت نير الاستعمار وغطرسته وحربه الضروس القاسية، وقد كانت أفئدة المسلمين جميعاً تشارك الجزائر في محنتها وبلوائها وعسرها وشدتها وما اعتراها من آلام في ساحات الجهاد وميادين القتال مدة قرن ونصف، وقد كان دافعي أن أشارك إخواننا الذين حاربوا الاستعمار لتبقى الجزائر عربية مسلمة جهد طاقتي وسعة معرفتي بل رأيت ذلك واجباً لا مندوحة عنه فاستجبت لثقة المسؤولين ورحلت للجزائر في شهر رجب ١٣٨٥هـ مع نفر من الإخوان، امتلأت نفوسنا حماساً لهذه المهمة ورغبة في تأدية هذا الواجب وغادرنا الوطن الحبيب فمررنا بالقاهرة وبنغازي وتونس حتى وصلنا مطار الجزائر وقدمنا لموظفي الجوازات الأوراق مكتوبة باللغة العربية فقيل لنا لابد أن تكون مكتوبة باللغة الفرنسية فأخبرناهم بأننا لا نعرف الفرنسية ونحن قادمون إلى بلد عربي مسلم ضرب – أمثلة – في الكفاح للتخلص من الاستعمار ورفع لواء العربية وراية الإسلام وقد أعزكم الله بالنصر، وأخيراً أخذوا الأوراق وترجموها وكانت لغتهم العربية ركيكة وضعيفة ولعل هذا هو السبب في ذلك، وقد أبدوا أسفهم لذلك وكانوا على جانب من اللطف وحسن

المجاملة، ثم توجهنا صوب مدينة الجزائر العاصمة وقد كنا أول بعثة عربية تصل إلى الجزائر من المشرق العربي بعد الاستقلال، وقد كان الحصول على فندق يضم أماكن لنا جميعاً معادلة صعبة فما من فندق يممنا إليه وجوهنا إلا وجدناه قد علق على بابه لافتة تقول بالفرنسية مشغول بالكامل غير أنا لم نيأس فحاولنا أن نطرق شتى الأبواب وانتهت المحاولات بالحصول على فندق اتسع لنا جميعاً وهو ما كنا نتمناه وكان عددنا ستة أشخاص وهم أعضاء البعثة التعليمية السعودية.

ومدينة الجزائر مدينة كبيرة وتقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وعلى تل جبلي يطل بهامته الشامخة على البحر مما أضفى على المدينة روعة إلى جانب الغابات المحيطة بها والأسواق تمتلئ بالحركة والنشاط حيث المعارض التجارية.. ولقد أفاض الكثير من المؤرخين عن التاريخ القديم للجزائر في مدينة تلمسان عام ٧٧٩هـ، وحسبي أن أذكر طرفاً مما شهدته فيها فمن أعظم أحيائها حي القصبة معقل المجاهدين فتذكرت خلال طوافي بين أرجائه جلادهم وصمودهم لطرد المستعمر عن ديارهم وتضحيتهم، والجامع الكبير الذي التقينا فيه بمجموعة من العلماء الذين فرحوا بنا وقالوا نحن لا نعتبركم أجانب في بلادنا بل إخوان كرام فقلت: وما عددنا أنفسنا غرباء في هذه الديار الإسلامية، ولكم سررت حينما رأيت الجامع يموج بالمصلين ثم توجهنا بعد ذلك لزيارة السفارة السعودية ووزارة التربية والتعليم حيث التقينا بالمسؤولين فيها فوجدنا منهم كل

ترحيب ومودة وسرور بمجيئنا للمشاركة في عملية التعريب واعتبروا ذلك تقديراً وشعوراً أخوياً رفيعاً وعرضوا علينا العمل في عدة مدن فاخترنا وهران المدينة الثانية والثغر الباسم الجميل، فتوجهنا إلى هناك بواسطة القطار بين الوهاد والنجاد والمناظر والمياه والأشجار حتى بلغنا وهران على شاطئ البحر، ولقد أنسانا التعب والمشقة تجدد المناظر ومرأى المزارع والأودية والبساتين وأشجار العنب والغابات على سفوح الجبال ومررنا بقرى ومدن كثيرة ورددت هذا البيت:

وردت وهران ملتاعا ومغتبطا تطغى بنفسي آمال وأفكار

ولقد أمضيت في الجزائر عامين دراسيين أسعداني بالتعرف على الكثير من مدنها وآثارها ومعالمها وتاريخها وعلمائها ومخالطة الطلاب والأساتذة مخالطة أخوة ومودة وتقدير، وطوفت في الكثير من القرى البلدان وما أحسسنا بالاغتراب وما زلت أحتفظ بذهني بالذكريات المتنوعة التي بقيت عالقة في النفس، ولله تلك الأيام وما تخللها من رحلات وجولات وجلسات على شاطئ البحر والبحيرات ووسط الأشجار والأعشاب، ورغم ما مر بهم من المحن والشدائد م قبل الاستعمار فما زالت الروح الإسلامية والأخلاق العربية الكريمة تغلب عليهم، وبعد فللجزائر من موقعها وثروتها وخبراتها ما يضمن لهذا المستقبل الكريم الزاهر بتوفيق الله وما أصدق قول الشاعر:

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

يمسي السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا

ولقد سعدت كثيراً حينما كنت أسير في شوارع الجزائر ووهران وتلمسان وعنابة وغيرها من البلدان فرأيت الأسماء العربية الإسلامية وأسماء الشخصيات الجزائرية المجاهدة ممن كان لهم دور إيجابي في تاريخ الجزائر مثل عبدالحميد بن باديس والأمير عبدالقادر الجزائري والإبراهيمي وغيرهم، وهكذا زالت أسماء الاستعمار واختفى الحرف اللاتيني حيث كانت اللغة وأسماء الشوارع والميادين فرنسية وظهرت الأسماء الإسلامية والعربية في ثوبها الجديد وبخط عربي أنيق وبذلك تغير الكثير من المعالم والقوالب واستعادت الكثير من مقوماتها العربية والإسلامية فقد كنا نقرأ ونسمع على الدوام بتعريب نواحي الحياة العامة في البلاد وتثبيت اللغة العربية في مختلف القطاعات ورحم الله ابن باديس القائل:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله فقد افترى ولقد كذب

تحية الجزائر في ملتقى الإبداع الشعري

بمناسبة إقامة الدورة السابعة لجائزة البابطين للإبداع الشعري «دورة أبو فراس الحمداني» ألقيت كلمة وقصيدة قائلاً أهدي تحية من ديار النبوة ومنازل الوحي ومسارح الفصحى ومواطن الشعر والأدب ومباءات الشمم والكرم ومهوى أفئدة العرب والمسلمين وسلام للجميع ما تعاقب النيران وتجدد الجديدان.

إن هذا الملتقى الأدبي يتبوأ من التاريخ الفكري مكانة سامقة وعنواناً وضاءً وأن مجال القول في غايته وأهدافه لذو سعة ولكن

مقتضى الحال يدعو إلى الاقتضاب بهذه التحية الشعرية التي تتأرج بزكي الشذا:

أيا أرض الجزائر أنت مجد ... لأبناء العروبة قد تسامى
فسيري للأمام بكل عزم ... فشعبك لم يزل حرا هماما
أحيى الحفل في أرض الجزائر ... بلاد الجود دوما والكراما
وتعبق أرضها طيبا وعطرا ... وورودا زانه حسن الخزامى
وجئت إليها يحملني اشتياق ... وذكرى عذبة عاما فعاما
إلى وهران زاد الشوق فيها ... وتزهو بالأحبة والندامى
لنا ذكرى وإخوان كرام ... لهم منا المودة واحتراما
ويجذبني الغرام إلى رياض ... يفوح عبيرها شرقا وشاما
وطلاب لهم صدق النوايا ... على التعليم فانتظموا انتظاما
وكم ألقيت درسا في صروح ... بها الطلاب تزدحم ازدحاما
وكلهموا مشوق نحو علم ... وصوت دروسهم يشجي الحماما
وما أحلى الربوع وساكنيها ... فقد كنا بها دوما كراما
وجئنا اليوم في حفل بهيج ... غدا علما رفيعا بل وساما
سعدنا في ربوعك بالتلاقي ... فزاد الشوق مشتعلا هياما
تحيات شذاها العطر حلوا ... لهذا الجمع حيا واحتراما
وها قد جئت يلفحني اشتياق ... فدع عني القساوة والملاما

وهكذا رأينا الجزائر بعد الاستقلال مرفوعة الرأس منتصبة

القامة ولقد وصفها كثير من الجغرافيين والمؤرخين والرحالة ممن جابوا أنحاءها وكتبوا تاريخها، ولقد قلت قصيدة طويلة خلال عملي في التدريس أجتزئ منها ما يلي:

حي الجزائر حيها ورجالها الغر الكواسر
هم للرجولة أهلها أهل الصرامة والبواتر
أجلو من احتل الحمى ومشى يجر الذيل صاغر
كم من شهيد قد مضى في قلبه حب الجزائر
يابن الجزائر شد لها عزا ومجدا أنت قادر
درست فيها نخبة شم المكارم والضمائر
وهران لن أنسى بها جمع البوادي والحواضر

في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري

لا شك أن المشاركة في الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية من الأمور الجديرة بالتشجيع.

ولقد جاءت دورة أبي فراس الحمداني في مدينة الجزائر العاصمة التي تنظمها مؤسسة جائزة عبدالعزيز بن سعود البابطين للإبداع الشعري وهي تحمل أكثر من دلالة في المسمى والزمان والمكان فهي تحمل اسم أحد الشعراء الأبطال الشاعر الفارس أبو فراس وكأنه يعود من جديد من قيد الأسر ليصدح في أرض الجزائر مفعماً بالصدق والقوة والأصالة.. لقد كانت زيارتي الأولى للجزائر قد مر عليها أكثر من ثلاثين عاماً حيث ندبت لتدريس اللغة العربية وآدابها في مدينة وهران.

وبدعوة من المؤسسة غادرنا الرياض صباح الأحد ٥/٨/١٤٣١هـ إلى الكويت مع نخبة من الأدباء والشعراء السعوديين ثم انطلقنا في طائرة الشعراء – كما أسماها بعضهم – إلى دمشق وإلى القاهرة ثم الجزائر عبر يوم كامل من الطيران وفي دمشق صعد إلى الطائرة مجموعة من الشعراء والأدباء ومعهم أم الطفل الشهيد الفلسطيني محمد الدرة، وخلال الرحلة الطويلة لم نشعر بالتعب أو الملل فقد كنا في أمسية شعرية داخل الطائرة الجزائرية وكانت عن الانتفاضة وعن محمد الدرة واستعراض قصائد أبي فراس الحمداني مما اقتضته المناسبة حيث تبارى الشعراء العرب من لبنان وسوريا والأردن ومصر والسعودية والكويت وعمان وقطر بقصائد شعرية تتأرج بزكي الشذا،

ولقد كان صعود والدة الشهيد محمد الدرة إلى الطائرة من دمشق حدثاً حرك مشاعر الشعراء وقام بعضهم بتسليمها قصائده وكانت تغالب أحزانها بمجاملات لها مغزاها وتحدثت لنا عن مصرع طفلها وفرغت الكثير من حزنها أمام الأدباء والشعراء فصاغوها قصائد شعرية رائعة جاءت طارئة وكأنها جاءت الدورة السابعة حدثاً ثقافياً متميزاً تحت راية أبي فراس الحمداني وشاعر الجزائر القائد الأمير عبدالقادر الجزائري لتقوم بربط ودعم أواصر التقارب بين المثقفين والمبدعين والأدباء في مشرق العالم العربي ومغربه وفق قواعد المحبة والتآخي ومد جسور الثقافة والأدب.

ومنذ وطئت أقدامنا أرض الجزائر شهدنا مظاهر الحفاوة والترحاب من الإخوة الجزائريين على مختلف المستويات حيث التقينا بالعديد من الشعراء والباحثين والأدباء، لقد كان هذا اللقاء تجمعاً لعدد من الأدباء والشعراء والمثقفين والمفكرين من مختلف أرجاء الوطن العربي حرك المياه الراكدة في الحركة الأدبية وأثار اهتمام الأدباء وفجّر قرائح الشعراء في تلك الأمسيات الشعرية الرائعة، لقد تساءلت خلال الندوات الثقافية عن سر الجمع بين أميرين عربيين تفصل بينهما مسافة بعيدة مكاناً وحقبة مديدة وزماناً، فقيل لي إن الشخصين يشتركان في مجال واحد وهو رصد بعض الملامح المتشابهة بين الأميرين وقد خاضا معركة واحدة غير متكافئة مع عدو واحد في أزمنة وأمكنة مختلفة.

فأبو فراس الحمداني كان واحداً من قواد سيف الدولة واجه دولة

الروم وتحمل عبء حروبها وقد واجهت الدولة الحمدانية مجابهة الروم في معارك متصلة كما واجه الأمير عبدالقادر الجزائري في الجزائر حلقة أخرى من حلقات الحرب مع فرنسا وتزعم المقاومة واستجمع كل الطاقات الممكنة، لقد أحسنت المؤسسة باختيارهما موضوعاً للدورة السابعة فهما يقفان مع تباعد التاريخ والمكان كبطلين في مواجهة مع عدو محتل.

إنهما أميران وفارسان وشاعران وأسيران في بلاد الفرنجة وإن الاقتراب من الشخصيات التاريخية التي اتسمت بالتميز من جوانب الإبداع الإنساني شيء جميل، ولقد كان حفل الافتتاح لهذه الدورة برعاية وحضور فخامة الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة الذي تحدث عن الشاعرين حديثاً طويلاً كما أقام حفل استقبال وحفل عشاء على شرف الضيوف وحضره الكثير من الشخصيات الثقافية، كما قام وزير الثقافة بدعوة ضيوف دورة أبو فراس الحمداني إلى حفل ثقافي بقصر الثقافة.

لقد عقدت عدة جلسات في قاعة المؤتمرات بفندق «الأوراس» بعد حفل توزيع الجوائز على الشعراء وجرى مناقشة القصيدة في عصر أبي فراس الحمداني وكذا موضوع اللغة والدلالة والإيقاع في قصيدة أبي فراس الحمداني وكذا الصورة الفنية، ثم تطرق الباحثون إلى عرض عن القصيدة في عصر الأمير عبدالقادر الجزائري وقراءات من شعره وأقيمت أمسية شعرية عن الشاعر أبي فراس وأخرى عن الأمير عبدالقادر الجزائري وأمسية شعرية اشترك فيها نخبة من

الشعـراء العـرب وأخـرى خصصـت لشعـراء الجزائـر، لقـد كان لقاء ثقافيـاً حول محـاور ثقافيـة ستشكل إضافـة إلى مخزوننـا في الشعر العربي وتواصلاً فكرياً وفرصة لتنمية العلاقات بين الأدباء والشعراء والمثقفـين ممـا يفيد العمل الثقافي في وجه التحديات وفي زمن العولمة الذي يحاول إلغاء الخصوصية والهوية الثقافية العربية الإسلامية، إن هذه اللقاءات دعم وحفظ للأدب والذاكرة الشعرية واستعادة وهج وألـق الشعر العربي الذي يمثل ركيـزة أساسية، وإن الاهتمام باختيار أسمـاء أعـلام في الشعـر العربـي وتراثنـا الخالـد يعـد إسهامـاً كبيراً في ميـدان الأدب والشعـر، نأمـل أن تظـل هـذه الجائزة عنوانـاً ثقافياً لخدمـة لغتنـا لغة القرآن الكـريم وتراثنا العربـي الإسلامي الخالد وإثراء حركة الإبداع العربي في مجال الشعر ونقده.

تلمسان لؤلؤة المغرب العربي

خلال إقامتي في الجزائر أستاذاً للغة العربية وآدابها في كلية المعلمين بوهران ١٣٨٥ – ١٣٨٦هـ حرصت على زيارة تلمسان لأطلع عن كثب على ما سمعته وقرأته عنها وما تحفل به من آثار كثيرة تدل على عمق ماضيها واهتمام المؤرخين والجغرافيين بشأنها حيث اشتهرت بكونها مركزاً حضارياً وتجارياً وسياسياً عبر العصور وذهبت مع بعض الزملاء من المدرسين السعوديين والعراقيين لزيارتها وانطلقنا من وهران حيث كان الجو مشرقاً مما مكننا من رؤية الأرض ومشاهدة المناظر الخلابة وكان الجو معتدلاً والهواء منعشاً والناس يبدون على طبيعتهم ، وتجولنا في رحابها خلال جولة ممتعة تذكرت خلالها ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع فيها حيث كتب مقدمته سنة ٧٧٩هـ والتي شغلت أذهان العلماء والمفكرين طوال عصر التاريخ ونالت العناية والاهتمام أضعاف ما ناله تاريخه الكبير الذي وضع بمقدمته أصول علم التاريخ.

لقد سمعت عن تلمسان الكثير إلى درجة العشق والإذن تعشق قبل العين أحياناً ولكن ما راء كمن سمع ولقد شاهدت فيها الكثير من المعالم التاريخية المهمة التي جعلت منها متحفاً للتراث المعماري العربي الإسلامي حيث تزخر المدنية بآثار كثيرة خلفتها حضارات الأمم والشعوب وظلت شاهدة على ماضيها العريق – إنها مدينة متألقة بالجمال نابضة بالحياة ولقد تعاقب على حكمها أمم كثيرة

كالبربر والرومان والأمويين والعباسيين والأدارسة والمرابطون والموحدون والمرينيون والحكم العثماني ثم الحكم الفرنسي عندما غزت فرنسا الجزائر ١٨٣٠م وقد حولها الأمير عبدالقادر الجزائري إلى عاصمة للجهاد والبطولات.. لقد كنت استعرض ذلك التاريخ الطويل وما عانته من الحروب والويلات وتجولنا في ربوعها ومغاراتها وحماماتها المعدنية وجامعها الكبير الذي يرجع إلى عهد المرابطين وقلعة المنصورة وضواحيها الجميلة حيث مدرجات الهضاب الخضر مما يرسم لوحة معطرة الحواشي تتجلى في أحسن صورها. ونعود بعد ذلك إلى وهران ونحن في طريقنا نمر بالعديد من القرى بعد رحلة مليئة بالتاريخ والإثراء والفائدة قائلاً:

أيا تلمسان الفكر والعز والمجد وأينابك التاريخ من سالف الدهر

في رحاب المغـــرب

كانـت أولى زياراتـي للمغـرب في عـام ١٣٨٥هـ فيما كنـت مدرساً في الجزائر وتجولت في رحابه مستمتعاً بروعة الطبيعة وأصالة التراث.

وفي يـوم الاثنـين الموافـق ١٣/١٢/١٤٠٠هـ توجهـت للمغـرب بعـد زيـارة لتونـس على متن إحدى طائـرات الخطوط الجويـة التونسية وقـد أقلعـت بنا الطائـرة في رحلة استمـرت زهاء ثـلاث ساعات، ولقد كنـا نشاهـد من على جبال الأطلس حيث تكسوها الثلوج ثم هبطنا في مطـار الدار البيضـاء العاصمة الاقتصادية للمغـرب وهي أكبر مدن المغـرب قاطبـة.. ولم تكن هذه هـي الزيارة الأولى للمغـرب فقد زرته منذ سنوات حينما كنت مدرساً في الجزائر وكانت رحلاتي للمغرب في فصل الشتاء ونزول الأمطار وهبوب الرياح الباردة..

ووصلنا إلى مطار محمد الخامس بعد الظهر وخرجت من المطار وإذا بأحـد السائقـين يأخـذ حقيبتي والتفت إليّ سائـلاً: أين تحب أن تنـزل؟ فقلـت لـه: لا تسألنـي اذهـب بـي إلى أي فندق في قلـب المدينة فـإن طـاب لي المقـام به مكثت فيه وإذا لم يكـن انتقل إلى غيره خاصة أن ليـس معـي مـن الأمتعـة أو الحقائب مـا يثقلني أو يعـوق تحركي، فانطلـق بسيارتـه حتى وقف بي عند فندقـين أحدهما يدعى المنصور والآخـر مرحبـاً فقلت له: فلنذهب إلى هذا الذي يرحب بنا وعسى أن يكون الاسم مطابقاً للواقع.

وبعـد استراحـة قليلة في الفنـدق خرجت متجـولاً في قلب المدينة

وكانت الشوارع مكتظة بالمشاة والسيارات كما أن المقاهي مليئة بالرواد ودلفت إلى إحدى المقاهي الواقعة في شارع محمد الخامس فاحتسيت شايـاً أخضـراً مغربياً وتعرفت خلال تلـك الجلسة على أحد الأساتذة المغاربـة وكان على جانب من العلـم والأدب فتجاذبنا أطراف الحديث عن المغرب والأندلس وإيراد الشواهد العربية من الشعر والأمثال وعن العـادات والتقاليـد في المغرب حتى أنساني متاعـب السفر والاغتراب، فالأحاديث الأدبية واللغوية العذبة الجميلة جعلتني أسترد الذكريات فتحدثنـا عـن تاريـخ قرطبـة وغرناطـة والقـيروان وفاس ومراكش وعلمائهـا وأدبائهـا فمضـى الوقـت ودعـاني لزيارة دارتـه في ضواحي المدينـة ولكنـي اعتذرت حيـث سأذهب غـداً إلى الربـاط وفاس وعدت إلى الفنـدق فوجدت بعض الإخوان السعوديـين وبقيت معهم في بهو الفنـدق حيـث دارت الأحاديـث الشيقة وطاب السمـر، ولم نتمكن من الخروج حيث بدأ المطر يهطل والسحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع في الجو.

وفي الصبـاح قمت بجولة على ضواحي المدينة وعلى شاطئ البحر حيـث المناظـر والدارات الجميلـة تتناثر على جانبي الطريـق، وأينما سرحـت النظـر يقـع علـى مناظـر طبيعيـة خلابـة وقد طليـت أغلب البيوت والفنادق بالدهان الأبيض مما يصدق عليها هذا القول:

صدق الـذي سماك بالبيضاء من أجـل مالك من يـد بيضاء
إن البياض لنصف حسن ذوي البهاء وبياض حسنك حاز كل بهاء

وحينمـا كنت أطوف في شـوارع وميادين الـدار البيضاء كان المطر

يهطل والبرق يلمع فذكرت قول الأعرابي:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ويجلو ذرى البيضاء ذكرتني نجدا

ألم تر أن الليل يقصر طوله بنجد وتزداد الرياح به بردا

حقاً إن الصلات بين المشرق والمغرب دينية وتاريخية قديمة وثيقة على الدوام وتزداد مع الأيام تبلوراً وتفاعلاً ورسوخاً.

وفي المغرب الشقيق ووسط أجواء الأمطار المتواصلة تذكرت بلادنا ومرابعها وسألت الله أن ينعم بالغيث والمطر، فغزارة الأمطار تجعل من تلك الربوع أرضاً خضراء مزدانة بأنواع الزهور الطبيعية المختلفة الألوان.

جولة في الأحياء القديمة:

قمت بجولة في الأحياء القديمة في المدينة بها حركة ونشاط تجاري كما زرت المتحف الوطني وتجولت في الأسواق الخاصة بالتحف والتراث الشعبي، وحينما كنت أتجول في تلك الأسواق رجعت بذاكرتي إلى الأيام التي زرت فيها هذه الأماكن منذ خمسة عشر عاماً حيث طافت بذهني بعض الصور والذكريات.

وفي المساء قمت بجولة على بعض المكتبات الموجودة في قلب المدين فوجدت اهتماماً وإقبالاً على نشر كتب التراث والتاريخ الإسلامي.

وفي الصباح توجهت للرباط على سيارة خاصة وكان الجو بديعاً إذ كان غائماً والمطر يهطل رذاذاً، وكانت المناظر رائعة حقاً فالأشجار والمزارع والبساتين منتشرة في كل مكان والأرض كأنها بساط سندسي، وقد استمرت الرحلة ساعة ونصفاً وصلت بعدها إلى العاصمة وعلى

الرغم من حاجتي إلى الراحة فلم أستطع مقاومة الرغبة في التجول في المدينة فخرجت بعد استراحة قصيرة في فندق حسان إلى التجول على قدمي ومشاهدة شوارعها وميادينها ومتاجرها وعدت للفندق بعد ذلك، وقبيل غروب الشمس بقليل استأجرت سيارة تجولت فيها على نواح متفرقة من الرباط الحديثة والقديمة، ولكم رددت قول أحد شعرائها حينما كنت أطوف بين ميادينها ومعالمها كقول الشاعر:

رباط الفتح مأوى الفاتحينا بدارته يطوف الناس حينا
إلى المنصور نسبته وأعظم به نسبا يزكي الناسبينا

وفي اليوم الثاني قمت بزيارة لبعض المؤسسات العلمية ومكتب تنسيق التعريب، ومكتب الملحق الثقافي ثم خرجت قاصداً مدينة فاس عاصمة المغرب العلمية وهي من أهم المدن التاريخية القديمة وتعتبر مركزاً إسلامياً وثقافياً هاماً حيث كانت مركزاً لدراسة العلوم الشرعية وقد تخرج فيها كثير من علماء المسلمين وكانت ذات مكانة رفيعة، وما أن قاربنا فاس حتى شاهدت البساتين والمزارع وكأنها روابي خضراء.

وبعد جولة في المدينة القديمة ذهبت لجامع القرويين وأديت صلاة الظهر وقد امتلأ الجامع بالمصلين وكان مفروشاً بالحصر الجميلة، وفي الجامع التقيت ببعض الإخوان المغاربة من رجال العلم الذين أخذوا يصفون علينا من كرمهم بالدعوة إلى تناول القهوة في منازلهم فاعتذرت لهم شاكراً حيث كان الوقت ضيقاً وكنت حريصاً على أن أرى شيئاً من معالم المدينة وزيارة بعض المكتبات والاطلاع

على بعض المخطوطات في إحدى مكتبات المدينة القديمة.. ولقد تأثرت من قوة الرابطة الروحية الأخوية التي تجعل أولئك الإخوة يشعرون نحونا على بعد الدار بالمحبة والمودة ولا غرو فوشائج الدين واللغة والتاريخ المشترك لها تأثيرها وفعاليتها، فمنذ سطع النور على هذه الأرض وأشرق ضوء الإسلام تحرر المغرب العربي من ربقة وسلطة الرومان الذين بسطوا نفوذهم عليه طويلاً فانتظم في أمة واحدة دينها الإسلام ولسانها العربية وحاكمها القرآن وبقي شامخاً شموخ المنارة الرفيعة منذ الخلافة الإسلامية التي أنفذته من سلطان الرومان، ولكم قلت للكثيرين ممن أتيح لي اللقاء بهم حينما جمعني مجلس في دور بعض الإخوان التونسيين والمغاربة وفي أحاديثنا انجر الكلام إلى أن استحضارنا دائماً لما صنعه أسلافنا من تاريخ مشرف وأمجاد عظيمة وتراث عريق يجعلنا نستحضر تلك المعاني ونتمثلها ونستوعب مضامينها بحيث تحفزنا دائماً إلى أن ننهج منهج الأسلاف ونكون في مستوى ما كانوا من سمو المكانة وعلو المنزلة وعظم المجد وكريم التعاون والوعي لطبيعة التحديات التي تواجهنا وترمي إلى إعاقة مسيرتنا.. كما تناقشت مع بعض الإخوة عن اللهجات العامية المغربية التي سمعتها والتي تختلف من منطقة إلى أخرى وتأثرها ببعض اللغات المجاورة كالفرنسية والأسبانية فضلاً عن البربرية حيث انتقلت إليها مفردات كثيرة من هذه اللغات والواقع أن اللهجات العامية في المغرب العربي ليس من السهل على العربي المشرقي أن يفهمها ويعرفها، ولذا فإن هذه اللهجات هي خطر يتهدد اللغة العربية

الفصحى فهل يدرك ذلك دعاة العامية الذين تارة يدعون إلى الكتابة بالحروف اللاتينية وتارة إلى العامية، ويدعون إلى إسقاط الإعراب والفصحى؟ حقاً إن الحديث عن موضوع الفصحى والعامية حديث ذو شجون بله يهيج الشجون على حد تعبير الشاعر العربي القديم:

وحدثتني ياسعد عنهم فهجت لي شجوني فزدني من حديثك ياسعد

ولا أريد أن استطرد في هذا الموضوع فقد كتبت فيه مراراً وتحدثت عنه في أكثر من مناسبة. وما أصدق قول الشاعر:

من يعرف الشمس لم ينكر مطالعها أو يبصر الخيل لا يستكرم الرمكا

وقول الآخر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وإنكار الفصحى بمثابة إنكار الأمر المحس المشاهد:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

إن حفظة اللغة أفراداً ومجمعيين قد أبلوا بلاءً حسناً في ميدان مقاومة العامي والدخيل من كلمات الحياة العامة وابتداع ألفاظ فصاح تحل محل الألفاظ العامية والأعجمية بما في ذلك مسميات ومصطلحات الحضارة وأدواتها ومعانيها.

ومن فاس توجهت صوب مكناس لإلقاء نظرة عجلى عليها ولعل خير وصف لهذه المدينة الجميلة هذه الأبيات:

يا رائدا للروض والإيناس عرج لشم الزهر في مكناس

بلد حباه الله كل لطافة وحماه من كدر ومن أدناس

وذهبت إلى مراكش عروس الجنوب ذات التاريخ وعاصمة المرابطين وكان لها امتداد ومكانة واستقر بها القائد يوسف بن تاشفين الذي كان له دور كبير في هزيمة الأسبان ولقبه أهل وطنه بأمير المؤمنين وسماه أعداؤه قائد الملثمين عندما فتح غرناطة وقرطبة فهو الذي أسس مراكش في القرن الخامس الهجري، لقد كانت واحدة من أعظم مدن المغرب الإسلامي وما زالت باقية إلى اليوم مدينة جميلة حافلة بالآثار والمعالم والميادين والمساجد والمكتبات التي تحكي تاريخ المرابطين والموحدين والسعديين، إنها مدينة زاخرة بالحيوية والنشاط والعمل وأسواقها عامرة بالتحف والمقتنيات والصناعات الجلدية والخشبية والمعدنية والحريرية والمشاهد المتنوعة الجميلة وواحات النخيل التي تحف بالمدينة وجبال أطلس الشامخة التي تطل عليها من الجنوب وقمت بجولة في حدائقها ومعالمها التاريخية والحديثة وهي اليوم مدينة سياحية.

خلال وجودي في المغرب وزيارة بعض المكتبات اطلعت على مجموعة من الكتب والدواوين الشعرية لبعض أدباء وشعراء المغرب فوجدت أدباً يجمع بين القديم والحديث في المعاني والمقاصد والأهداف ومعايشة الواقع الحضاري إلى جانب ما قرأته لبعض الشعراء من شعر رصين يضاهي شعراء المشرق، ويمتاز بصفاء القول وسمو الخيال وعراقة الماضي وابتكار الحاضر.. ولقد تحدثت مع أحد المسؤولين عن دور النشر والمكتبات عن عدم تسويق هذه الدواوين والكتب إلى المشرق ليتيسر للقارئين والباحثين الاطلاع على هذه الآثار ودراستها وفهم

أدب المغرب فذكر لي عدة ظروف كعدم وجود موزعين وقلة الإمكانات وما إلى ذلك وقدم لي أكثر من قائمة تضم مجموعة من الكتب والدواوين مما يدل على أن الأدب يحظى باهتمام ويتبوأ مكانة طيبة، ولقد اطلعت على مجموعة من الصحف والمجلات فوجدتها تحفل بنشاط أدبي وتساير التطور الحديث شكلاً وموضوعاً.

تحية مكناس

في زيارة ثقافية لها في سنة ١٤١٥هـ، جرت هذه القصيدة:

مكناس يا درة زانت مفاتنها ... وفي المعارف والآداب تزدان

جمالها قد تجلى في مرابعها ... وللهوى صور شتى وألوان

على رباها تهادى الحسن مؤتلقا ... ورد وظل وأحلام وألحان

هضابها الشم والأشجار باسقة ... والأرض مخضرة والأفق جذلان

والطل ينشر في أرجائها بردا ... مروجها الخضر أشجار وشطآن

تلك الطبيعة في أحضانها نغم ... وفي مرابعها زهر وريحان

في روعة الحسن قد ذابت مشاعرنا ... من الجمال وهذا الحسن فتان

شتى المفاتن توحي الشعر أعذبه ... في سوحها صور بالزهر تزدان

فيها الجمال وكل الناس تقصدها ... وفي بساتينها خوخ ورمان

أطلالها معقل التاريخ من قدم ... وللأريج بها روح وعرفان

لقد تجولت في أعلى مرابعها ... وراعني الحسن أشكال وكثبان

للسائحين بها في ظل أودية ... عطر وزهر وجنات وغدران

بين تطوان ومراكش

كنا ونحن صغار ننشد في المرحلة الابتدائية أناشيد كثيرة وكان من بين الأناشيد المفضلة لدى الطلب والمعلمين أنشودة:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

ومروراً بالعديد من المدن المغربية وصلت إلى تطوان المدينة التاريخية والتي يقول أحد شعرائها:

تطوان تطوان لا شيء يضاهيها غنت بلابلها إذ سال واديها

والفجر والليل لولا بعض من فيها لما نويت رحيلا عن مغانيها

وقول الآخر:

تطوان ما أدراك ما تطوان سارت بها الأنهار والخلجان

لقد جمعت هذه المدينة بين البحر والجبل وقد بناها مهاجروا الأندلس في القرن التاسع الهجري على أنقاض تطوان القديمة فقد جاءها الغرناطيون بعد نكبة الأندلس وتحصنوا بها واتخذوها مركزاً لغزواتهم وتذكرت قول الشاعر العربي وأنا أتجول في رحابها وبين معالمها:

انظر إلى تطوان كالقرطاس بيضاء صافية من الأدناس

ومنها توجهت لمراكش مدينة التاريخ والآثار والتي بناها يوسف بن تاشفين في القرن الخامس الهجري حيث اتخذها حصناً له

ولدولته حيث اتخذها المرابطون عاصمة لهم ولا تزال آثار المرابطين والموحدين قائمة إلى اليوم وقد كانت مركزاً للعلم ووفد إليها العلماء والشعراء وقد وصف أحد الشعراء قصورها قائلاً:

كل قصر بعد البديع يذم فيه طاب المجنى وطاب المثم

منظر رائق وماء نمير وثرى عاطر وقصر أشم

إن مراكشا به قد تباهت مفخرا فهي للعلا قد تبسم

وتجولنا في رحابها ومشاهدة معالمها القديمة والحديثة مما يسر الناظر ويروق المتأمل ويذكر تاريخها وما مرت به من مجد وتاريخ وذكريات ذات عبق تاريخي وتراث أصيل ولقد كان السرور يملأ جوانحي وأنا أتنقل بين تلك الربوع وما تحفل به من جوانب تاريخية وفكرية وحضارية وما مرت به من قرون طويلة من الازدهار كما رسمها من قبلي عدد من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين حيث عرفوا هذه البلاد وجابوا أنحاءها وكتبوا تاريخها ومؤسسها يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس الهجري وكانت حصناً له ولدولته ثم جاءها الموحدون واحتفظوا بها عاصمة لملكهم الواسع وزادوا في عمارتها مساجد ومدارس ومنارات لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم وصارت مركزاً للعلم مما زاد من شأنها وخلد ذكرها.

رحلة إلى فاس مدينة التاريخ والعلم والآثار

قدر لي أن أقوم بزيارة مدينة فاس عدة مرات حيث حضرت فيها عدة مناسبات علمية وثقافية ويطيب لي في هذه المناسبة أن أسجل انطباعاتي ومشاهداتي عن هذه المدينة التاريخية العريقة والمركز الثقافي والتراثي وقد تخرج فيها كثير من علماء المسلمين وكانت ذات مكانة رفيعة فهي حافلة بالآثار والأمجاد العربية الإسلامية حيث مر تاريخها بحقب وعصور وكان لعلمائها دور في الدفاع عن الإسلام ونشر رسالته في القارة الإفريقية.

ولكم تألق عالم وأديب ومحدث ومؤرخ من هذه المدينة فأسهم إسهاماً كبيراً في خدمة العلم والأدب والثقافة واللغة والتاريخ والحديث ونشر الثقافة الإسلامية والدفاع عنها والذب عن حياضها ونشرها في جنوب أوروبة وغرب إفريقية وما زلنا نحمل في أعناقنا ديناً لأولئك الأسلاف من علماء المغرب الذين كانت لهم المصنفات الفائقة من أعلام البيان وأساطين اللغة والأدب والشعر وما زالت أشعار الأندلسيين والمغاربة تحتل موقع الوجدان العربي الإسلامي وقد عدوا عن الحنين إلى المشرق الغربي في قصائدهم وأشعارهم.

لقد كانت مدينة فاس هي العاصمة العلمية وقد أسست في عهد المولى إدريس الثاني سنة ١٩٠هـ وتوجد بها جامعة القرويين التي بنيت سنة ٢٤٥هـ في عهد يحيى بن إدريس ولقد ازدهرت هذه المدينة ووصلت أوجها في عهد المرينيين الذين اتخذوها عاصمة لهم حيث

أنشئت بها عدة مراكز ومنشآت حضارية أهمها القصر الملكي الحالي وعدة مدارس ولقد قمت مع مجموعة من الإخوة الذين حضروا ندوة أبوبكر بن العربي بزيارة مدرسة المصباحية وسوق الصفارين وسوق العطارين وخزانة القرويين وهي حافلة بالمخطوطات ثم ذهبنا للمدينة القديمة وشاهدنا أسواقها وبيوتها وأسوارها ثم انتقلنا للمدينة الجديدة الحافلة بمعالم الرقي والتقدم والحضارة.

وخلال وجودي في مدينة فاس للمشاركة في ندوة أبوبكر بن العربي المعافري وجه للمشاركين في الندوة دعوات ممن ضمنها دعوة رئيس المجموعة الحضرية لولاية فاس وعميد جامعة سيدي محمد بن عبدالله ورئيس جامعة القرويين ورئيس جمعية فاس فكانت لقاءات علمية وأدبية وأحاديث فكرية ولغوية تناولت العلاقات والصلات بين المشرق والمغرب قديماً وحديثاً، وقلت إنها قديمة وثيقة على الدوام وتزداد مع الأيام تبلوراً ورسوخاً، كما أن كتب الرحلات حافلة بالرحالة من علماء المغرب الذين كتبوا عن الحرمين الشريفين ومصر والشام ووصفوا المشاعر المقدسة المتعلقة بالحج، وما في مكة والمدينة من آثار كريمة كابن بطوطة وابن جبير وابن عبدالسلام ويحيى القرطبي ومحمد الكناني والعبدري والفاسية وإدريس العلوي الحسني الفاسي ومحمد بن الطيب الفاسي صاحب الرحلة الفاسية والتي وصف فيها رحلته إلى الحج وما زالت خزانة القرويين والرباط تحفل بكتب كثيرة فقد برز الإخوة المغاربة في هذا الجانب ومدوا الثقافة العربية الإسلامية بذخائر المعرفة ونتمنى أن ينفض

الباحثون الغبار عن كتب الرحلات التي ما زالت مخطوطة في خزائن المكتبات.

وجرى الحديث عن الندوة وعلمها فهو يعتبر من العلماء البارزين الذين تعددت مواهبهم وتنوعت شخصياتهم وقد كان لرحلاته الأثر البارز في تكوين شخصيته ولقد اشترك في هذه الندوة أكثر من ثلاثين باحثاً توافدوا من مختلف الجامعات ومراكز البحوث وأقيم حفل الافتتاح في الجامعة.

ولقد تناول الإخوة المتحدثون جوانب متعددة من شخصيته في مجالات التفسير والحديث وأصول الفقه واللغة والأدب.

ثم ألقيت بعد ذلك حديثاً في مقر الندوة بجامعة سيدي محمد بن عبدالله في فاس.. تناولت فيه مجموعة نقاط منها بعض مؤلفاته مثل أحكام القرآن،كتاب المسالك في شرح موطأ مالك، القبس على موطأ مالك، عارضة الأحوذي على كتاب الترمذي، القواصم والعواصم، المحصول في أصول الفقه، سراج المريدين وسراج المهتدين، كتاب المتوسط، كتاب المشكلين، تآليف في حديث أم زرع، الناسخ والمنسوخ، تخليص التلخيص، القانون في تفسير القرآن، أنوار الفجر في تفسير القرآن، وقال هو نفسه عنه إنه ألفه في عشرين سنة وثمانين ألف ورقة في نحو ثمانين مجلداً وقد تفرقت بأيدي الناس.

ولقد أضحى بهذه الخلفية العلمية الرائعة نسيج وحده فهو عالم ثبت وفقيه متمكن ولغوي ضليع وهذه المؤلفات رصيد حافل تدل على شخصية فذة وجهود بارزة نهل من فكرها وعطائها الكثيرون

وانتفعوا بها، وأن أعماله ومؤلفاته ستظل منهلاً فياضاً مفيداً، والآن نسأل أين ذهبت تلك الكتب والمؤلفات وفي أي موضع طوّح بها الزمان ولقد ضربت الأيام على كثير من تلك النفائس وهدمت تلك الصروح العلمية ومهما أحزننا فقد الكثير من آثاره فإن مما يجلب إلينا العزاء أن هناك قدراً باقياً من تلك المصنفات والأمل كبير إن شاء الله في هذه الندوة في تناول شخصيته ومعالم حياته ومواقفه الإصلاحية والعلمية وإلقاء الضوء على جوانبه اللغوية والأدبية والعلمية وإثرائها لتبقى مشعلاً وهاجاً للباحثين والدارسين وتبقى في المكتبة العربية من الذخائر العلمية الحضارية مشاعل معرفة في أوطان شتى من الأرض لما تستحق من عناية واهتمام ويتعطش لها الوسط العلمي.

وبعد فإني لأعبر عن الاعتزاز بالمشاركة في هذه الندوة العلمية والمناسبة الفكرية والتعرف على شخصية ابن العربي من خلال محاور هذه الندوة ذات الدلالة الكبيرة والاستماع إلى بحوث الأساتذة الباحثين.

لقد اعتبره مؤرخو الأندلس، أحد أركان ثقافتها وعلمائها وحفاظها وكان أديباً بارعاً فاضلاً مطلعاً على أقسام الكلام ممن النظم والنثر وراوياً لوثائقها بارعاً في العربية وضروبها.

وهذا يدل على مدى اتساع ثقافته التي اكتسبها من بيئته الثقافية في الأندلس ومن تطوافه بحواضر العالم الإسلامي فهو يحتل مكانة متميزة في تراثنا العربي الإسلامي.

وكان حفياً باللغة العربية وحريصاً عليها وكانت لديه الملكات والاستعدادات اللغوية مما جعله عالماً بها بل ونحوياً من أساتذة النحو وقد وضعه المؤرخون للحركة الأدبية في الأندلس في منظومة اللغويين وأخذ على كاهله تدريس اللغة العربية لأدباء الأندلس وكانت مجالسه الأدبية تحفل بالأشعار والأخبار الأدبية وعلوم النحو والصرف والبلاغة ويستعرض في دروسه أساتذة النحو وأئمة البيان من أمثال سيبويه والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب ومدرسة الكوفة والبصرة والكسائي والأخفش والفراء والأصمعي وكتب سيبويه والكسائي وغير ذلك من الكتب والأبحاث النحوية وفي عصره بلغت الدراسات اللغوية مستوى رفيعاً ونشطت حركة التأليف في هذا الميدان وصدرت له كتب لغوية مثل ملجئة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين واللغويين وتعرض لأمور لغوية ومسائل نحوية في كتابه أحكام القرآن ، وكذلك شرح غريب الرسالة حيث شرح فيها المفردات والألفاظ التي وردت في رسالة أبي زيد القيرواني كما ذكر له حاجي خليفة والمقري في نفح الطيب رسائل في مسائل النحو وقضايا اللغة ولقد تتلمذ عليه عدد من العلماء والأدباء واللغويين حيث ورد في كتب الطبقات أن عدداً من علماء اللغة والأدب قد أخذ عنه مسائل النحو وعلوم اللغة العربية لقد كان علماً من أعلام الأندلس في حقول علمية متعددة أوردها من كتبوا عنه وترجموا له وكانت له آراء وأفكار ذات دلالة ومضمون وفي مستوى علماء اللغة في عصره ولقد أسهب الرواة في هذا الجانب وفي الحديث عن عمقه اللغوي والأدبي وقالوا

إنه درس كتاب سيبويه وهو في الأندلس قبل أن يذهب إلى المشرق وفي بغداد اهتم بآثار مدرسة الكوفة والبصرة وما كان يحدث بينهما من خلاف واهتم بمؤلفات علماء اللغة في بغداد والبصرة كابن جني والشجري وابن فارس وله آراء نحوية في مسائل كثيرة ونراه يرجح آراء سيبويه في بعض المسائل وينتقده بعض الأحيان ولا أريد أن أطيل عليكم في بحث وإيراد آرائه.. وهي مبسوطة في كتب الدراسات اللغوية في الأندلس.

حقاً لقد ارتفع بمستوى اللغة العربية وإحياء تراثها الفكري ومقوماتها التاريخية وفاض شعره بالغزل والوصف والشوق للأماكن والبقاع الأندلسية فكان تصويراً دقيقاً بليغاً ووصفاً صادقاً وامتاز شعره بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبراعة التصوير وحفل بالمعطيات اللغوية السامية وابتعد عن الضعف والركاكة وأعرض عن الأغراض الشعرية التافهة ووظف اللغة والأدب في أمور علمية كثيرة، وترك آثاراً واضحة وثروة أدبية ولغوية تشكل امتداداً فكرياً له ذات خصائص وسمات أدبية متميزة لا تغيب على من احتك بتراثه ووقف على عطائه الفكري والمتمثل في أسلوبه العميق خلال مناظراته للعلماء ولأستاذه الغزالي حيث يتجلى الأسلوب البلاغي الرصين والبراعة اللغوية والمهارة الأدبية والإبداع الفكري وله رسائل لغوية وأدبية منها الرد على ابن السيد البطليوسي حيث نقد شرحه لديوان المعري، لزوم ما لا يلزم، وهذه الرسالة كغيرها من رسائله الأدبية واللغوية المفقودة وقد أشار لها صاحب الفهرست وكما ورد ذكر

رسالته شرح غريب الرسالة والتي شرح فيها المفردات التي جاءت في رسالة أبي زيد القيرواني وقد نسبها إليه صاحب كتاب نفح الطيب للمقري، كما أن ديوانه الشعري تتجسد فيه الرؤية الفكرية الحافلة بروائع القصائد والأشعار والحكم البالغة وكانت مجالسه ممتعة بالعلم والأدب وصدق الحس والأصالة وحسن التذوق لهما مما يدل على مقدرة أدبية واطلاع واسع والواقع أن البحث عن ابن العربي في كل جوانب حياته العلمية والأدبية يتطلب الإطالة بدرجة كبيرة وحسبنا أن نعتمد في ذلك على التلميح بين التصريح والخلاصة أنه أدى رسالته في الحياة على أكمل وجه ورحل مخلفاً إنتاجاً علمياً ثراً مما جعله من مفاخر الثقافة الإسلامية ومن أشهر علمائها وتوفي في مراكش سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وحمل إلى هذه المدينة فاس ودفن بها رحمه الله وأكرم مثواه.. وقصارى القول فإني لأشعر أن بياني يقصر عن أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حق هذا العالم وأرى قلمي عاجزاً عن أن يجري بالحديث إلى الغاية التي تناسب فضله ومقامه متعللاً بقول الشاعر:

إن القليل من الكلام بأهله حسن وإن كثيره ممقوت

ما زال ذو صمت وما من مكثر إلا يزل وما يعاب صموت

وبعد تمضية أيام ممتعة في ربوع هذه المدينة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة والقديم والحديث غادرتها مردداً قول الشاعر العربي:

بنفسي تلك الأرض ما أجمل الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

إيفران مدينة خضراء في قلب الأطلس المغربي

ذهبت إليها في يوم مشمس وجميل ، وإيفران مدينة مغربية تعيش دائماً ربيعها وسط كل فصولها، لتبتهج بكل ألوان زرقة السماء وبياض الثلوج، وألوان لا تُحصى فهي مدينة وديعة وهادئة في قلب الأطلس المتوسط ، سموها (سويسرا المغرب) وهي الحديقة الدائمة الاخضرار ، وتزدان بطبيعة أخاذة بجمالها وأخذت أتجول في رحاب هذه المدينة.

وزائر إيفران يجد فيها متعة المناظر وحساً جمالياً يرقى بالروح إلى ذوق سام ومعنى في هذه المدينة التي لها جذور تاريخية تتغذاها من غابات الأرز وجبالها الشامخة، وشلالات وينابيع ومهرجانات استلهمت أصالتها من الطبيعة والتاريخ. فهي مدينة تبهرك بجمالها وقد أجمل الشعراء والمؤرخون ذلك وتذكرت قول أحد شعرائها:

رفعت سماء عمادها فكأنها غضى وورد يانع وبهار

ولما كان حديث الشعر حديثاً محبباً إلى النفس رددت قول أبي الطيب المتنبي وأنا أودعها:

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جمالك يعشق

وقلت من قصيدة وأنا أتجول في مرابعها:

وجئت أشهد في إيفران روعتها مناظر بالشذا الفواح تنسكب

وكم بدا من جمال فوق تربتها يزينها الحب في أنحائها عجب

في جامعة فاس

ألقيت هذه القصيدة في ندوة أبوبكر بن العربي المعافري بجامعة فاس في ٢٣/٥/١٤١٣هـ. حيث كنت مدعواً للمشاركة في هذه الندوة العلمية:

طاربي الشوق من روابي (طويق) نحو (فاس) تزدان بالمهرجان
يا رفاقي على دروب بيان قد أتينا من سائر الأوطان
جمعكم أيقظ المشاعر عندي رغبة في اللقاء بالخلان
كل شيء يؤكد اليوم أنا قد حضرنا لندوة ذات شان
«ولفاس» توافد الناس جمعا مشمخرا بعلمه والبيان
فافتحوا بالنقاش كل جديد بين أفياء عالم بالمعاني
بنواحي العلوم كان ضياء وسنى للشباب في كل شان
وأفيضوا مما أفيض عليكم من علوم قد خلدت في الزمان
رفقة العلم واجتماع كهذا منير فوقه تعز الأماني
ومجال الحديث نحو إمام مستهام بالفكر والعرفان
كان شيخا معلما وإماما علم الناس في حمى الإيمان
يا أبابكر أنت شيخ مفدى في رحاب الثواب والرضوان
أحكم القول في ضروب المعاني فتبقت لنا بكل مكان
إنما العلم همة وعلو كبرت عن تصور الأذهان

والتحايا تفيض حبا إليكم صادقات بأعمق الشكران
أسأل الله أن يديم علينا كل ود ونعمة وأمان

وبعد تمضية بضعة أيام في ربوع المغرب الحافل بالآثار والأمجاد العربية الإسلامية حيث مر تاريخه بحقب وعصور وأسهم في نشر الإسلام في القارة الإفريقية وجنوب أوروبا وعني علماؤه بإثراء اللغة العربية بروائع البيان وحافظوا على شخصيته التاريخية المتميزة وتقاليده العريقة والجمع بين جمال وعراقة الماضي وبهاء الحاضر.

وبعد تمضية أيام حافلة بالفائدة والمتعة، ودعت تلك الربوع والديار التي تتوزع قروناً طويلة من الحضارة والازدهار قائلاً:

كم سجل التاريخ في صفحاته صورا مجسدة بكل ثناء
تاريخ مغربنا كمسك عاطر كم فيه من حسن ومن إغراء

في الأندلـــس

كانـت زيارة الأندلس بالنسبة لي من أعز الأماني وأغلاها فطالما هفـت نفسي وتطلعت إلى مشاهدة تلـك المعالم والوقوف على المفاخر العربيـة الإسلاميـة والمجد العربـي المؤثل، وشـاء الله أن تتحقق تلك الأمنيـة، ففي عطلة الربيع عام ١٣٨٥هـ وكنت وقتها منتدباً للتدريس في الجزائـر اغتنمتهـا فرصـة سيما أن جـو الربيع الدافـئ وما يحفل بـه مـن متعـة وبهجـة يشجع علـى ذلـك، فاتفقـت مـع مجموعة من الأصدقـاء على تمضيـة العطلة في أسبانيا، وبعـد تهيئة الاستعدادات الواجبـة للرحلـة مـن الحصـول علـى تأشـيرة الدخـول وغيرها من مستلزمـات الرحلـة غادرنا مدينة وهران المدينـة الجزائرية الجميلة والثغر الباسم المطل على شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

وتوجهنـا منها بطريـق السيارات إلى الحـدود الجزائرية المغربية فوصلنـا بعد مسافة قطعناها وهي ١٧٠كيـلاً وبعد الإجراءات المعتادة دخلنـا الحـدود المغربيـة وتوجهنـا إلى مدينـة (وجـده) إحـدى المـدن المغربيـة الكبـيرة، ومنهـا استأنفنـا مواصلـة السـير متوجهـين إلى الأندلـس، وبعد المرور بعشـرات البلدان والقرى المغربية حيث المناظر الطبيعية الخلابة وصلنا إلى مدينة (الناظور) على الحدود المغربية، وبعـد اجتيـاز المراكـز الأسبانيـة التـي لم يـدم انتظارنـا أمامها سوى بضع دقائق توجهنا إلى مدينة (مليلية) أولى المدن الأندلسية، وهذه المدينـة تقـع على شاطئ البحـر الأبيض المتوسط بهـا نشاط تجاري

واسع وبها عدد من العرب المغاربة، وبعد زيارة لأهم معالمها التاريخية والحديثة ركبنا البحر قاصدين مدينة (ملقة) مدينة المجد العربي والتي كانت في الماضي عاصمة هامة من عواصم الخلافة وصلناها بعد رحلة بحرية استغرقت أربع عشرة ساعة استمتعنا خلالها بجمال البحر ومشاهدة أمواجه ومناظره البديعة «وملقة» حالياً مدينة تجارية ضخمة ذات جمال وبهاء، تتوسطها الحدائق الفخمة وتضفي عليها المناظر الطبيعية التي تحيط بها من كل جانب جلالاً وروعة، وفي ملقة اندثرت كل المعالم العربية ولم يبق بها شيء يوحي بما كان للعرب والمسلمين من مجد ومعالم سوى القليل ومنها توجهنا إلى مدينة (غرناطة).

ولقد كان الطريق متعباً حيث المنحنيات المتعددة بداخل الجبال فلا تستطيع السيارة أن تزيد سرعتها أكثر من ٣٠ كيلاً، أما جوانب الطريق فهي جميلة وممتعة لدرجة تنسي الإنسان متاعب الطريق، وعند وصولنا غرناطة صادفنا عشرات المرشدين، هذا يعرض عليك فندقاً وآخر يتعهد بمرافقتنا في زيارة المعالم والمناطق السياحية ولكم رددت قول الشاعر:

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

وتوجهنا إلى فندق في داخل المدينة قريباً من قصر الحمراء، وسكان غرناطة طيبون جداً يمتازون باللطف وحسن المعاملة والابتسامة ترتسم على وجوههم ويحبون العرب كما أن ملامح أهلها غالباً أقرب ما تكون إلى السمات والملامح العربية، وتذكرت وأنا أطوف في شوارع

غرناطة وفي أحيائها ما كانت تحفل به هذه المدينة من ندوات الأدب ومجالس الشعر، وأعلام البيان وأساطين الفلسفة ورواد المعرفة وما خلفه أولئك العرب من مذاهب فكرية وتراث غزير ونظريات علمية، ولا زال الأثر العربي قوياً واضحاً في حياة الناس وفي صناعاتهم مما يبعث على الاعتزاز بتاريخنا الذي بقي حياً إلى اليوم.

فكم شهدت غرناطة وغيرها من نهضة فكرية متوثبة ونشاط ذهني لامع، ووقفت لحظات وأنا أطوف بالأحياء العربية الباقية حتى الآن وأنتقل بفكري إلى تلك الأيام الزاهرة المجيدة وما بلغه العرب إذ ذاك من شأو رفيع وما كان لذلك من أثر وفعالية في دفع الحضارة التي ملأت الدنيا إشعاعاً ونوراً، وابتدأنا بزيارة (قصر الحمراء) ووجدنا الزحام عليه شديداً لكثرة الوافدين من مختلف الجنسيات الأوروبية والأمريكية، وعند مداخل القصر لا تستطيع الدخول إلا بعد انتظار حيث أن مئات السياح يلتقطون الصور لدرجة أنك تفرك عينك كل لحظة لكثرة ما يصيبها من تسليط عدسات التصوير، أكثر السياح يتأبط بين ذراعيه عدة كتب إلى جانب قصاصات الصحف والمجلات التي كتبت عن هذا القصر وتاريخه.

ودخلنا القصر وهو قصر شامخ عالي البنيان يقع على ربوة مرتفعة بحيث يطل على مدينة غرناطة وضواحيها وبعد قطع تذكرة الدخول وهي تباع بما يعادل ستة ريالات أخذنا في الطواف بداخل القصر وشاهدنا بوابة القصر الفخمة بأبوابها القديمة ثم غرف القصر وممراته وحدائقه الفخمة ونافورات المياه وقاعات الاستقبال

ومجالس الخليفة، ولا تزال النقوش والكتابات والزخارف باقية مثل (لا غالب إلا الله) وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة والحكم الدينية والأبيات الشعرية، واستمر طوافنا في القصر أكثر من ثلاث ساعات ونحن نخرج من قاعة إلى قاعة ومن حديقة إلى حديقة مما يعطي صورة حية للفن المعماري الإسلامي الذي يدل على المهارة والدقة والبراعة، وفي داخل القصر يوجد العشرات من باعة الصور المتعددة للقصر والتي تنفد بسرعة من جانب المئات من السياح، وفي القصر اقترب منا شاب أسباني عندما سمعنا نتحدث بالعربية ومد يده لمصافحتنا ودار بيننا وبينه حديث عن القصر وتاريخه ولقد كان على جانب من الثقافة وأخذنا متنقلاً بنا بين طوابق القصر ومشاهده الفخمة وقام يقرأ لنا بعض النقوش والكتابات التي بدأت تندثر لدرجة أننا لم نستطع فك حروفها لإمحاء الخطوط، وفي القصر أدخلت المصابيح الكهربائية لإضاءته، وكم رددت مع شوقي وأنا أرنو إلى القصر قوله:

يا قصورا نظرتها وهي تقضى فسكبت الدموع والحق يقضى

ومن القصر خرجنا إلى (جنة العريف) وهي حدائق جميلة مجاورة للقصر تعتبر غاية في الروعة والجمال والتنسيق، ومما يدل على الذوق العربي الأصيل ومما يزيد العربي فخراً أن هؤلاء المئات من السائحين الأجانب نسمعهم وهم يشيدون بالمجد العربي الإسلامي ويبدون دهشتهم لدقة ما في هذا القصر من نقوش وفنون وزخارف، فصدفة التقينا بمجموعة من السياح الفرنسيين فقاموا

يتحدثون عن عظمة الفن المعماري عند العرب وأن المسلمين في ذلك العصر يعتبرون ممن أسهموا بنصيب كبير في قافلة الفكر – ولا شك أن التقدم العلمي الذي أحرزه أسلافنا العرب المسلمون في هذه البلاد وفي ظروفهم يستحق الكثير من التقدير والعناية.

وما أكثر ما تغنى الشعراء بالأندلس وأفتنوا في ذلك فوصفوا جمال طبيعتها وحياتها وبطاحها، فهذا ابن هانيء الأندلسي يقول:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأشجار وأنهار

وما أشد ما زخرت به أشعارهم من رقة وأخيلة وعذوبة وما فاضت به من جمال وجلال ومتعه إلى جانب ما تحفل به من ناحية فنية وجمالية، ولا زالت الأجيال تردد تلك الأشعار التي تعكس بجلاء تلك الحياة التي تصف الأندلس وتتغنى به وتشدو بمباهجه ومفاتنه.. وتصف حياتهم التي كانت مفعمة بالبهجة والرضى في تلك الربوع، وفي أشعارهم تلك عرض واف لما كانت عليه حياتهم ومعارفهم وعلومهم وتقاليدهم وما اتصفوا به من كريم الصفات وجميل العادات وما أثر عنهم من لطائف وطرائف ومساجلات.. وما نقله الرواة عن أحوالهم وشمائلهم وذكريات ولاتهم وقضائهم وأيامهم..

لقد خلفوا لنا تراثاً ضخماً كان بمثابة صور ناطقة حية بما كانوا يتميزون به من صفات وخلال وسجايا. إنها ذكريات متى تذكرها المرء أرقت حنايا قلبه وأثارت له الأسى وجعلته يغرق في لجج من الحسرة واللوعة، ولا أريد أيها القارئ أن أطيل وأترك لخيالي أن يستبد بشيء من وقتك فيجعلني هائماً في بحر من الذكريات التي أوحتها طبيعة

المكان، فمن الخير أن نتناسى ذلك ونستمر في متابعة الرحلة، ولكنه الإحساس الذاتي والتأمل النفسي فإلى متابعة الرحلة..

ففي مدينة غرناطة قام صديقنا الشاب الأسباني بمرافقتنا لزيارة الأحياء العربية القديمة ومشاهدة بعض البيوت والمعالم الأثرية فتجولنا بعد العصر في تلك الشوارع سائرين بين ممراتها الضيقة ورأينا آبار المياه القديمة، ودار بيننا وبين بعض سكان هذه الأحياء محاورات لطيفة حيث وجدنا منهم استقبالاً جميلاً وترحيباً لطيفاً، ولقد دهشت لمظاهر هذه الحفاوة وحبهم للعرب وحفظهم لبعض الكلمات العربية التي قاموا بترديدها أمامنا وقام بعضهم بفتح بيوتهم لمشاهدتها للتدليل على أنها باقية على التصميم العربي القديم.

والعجيب أن أغلب البيوت حتى الحديثة منها في مدينتي قرطبة وغرناطة لا تزال على النمط العربي، فأبواب البيوت توجد على جوانبها مسامير صفر ويتوسط الباب حلقة كبيرة إلى جانب (فتحة) تتوسط الباب تشبه إلى حد ما الأبواب القديمة في مدينة الرياض.. ولكن أدركني حزن عميق إذ تذكرت كيف ساد الإسلام في هذه الربوع قروناً طويلة ثم باد .

واستأجرنا عربة يجرها حصان انطلق يجري بنا بسرعة إلى بعض الأماكن القديمة حتى شهدنا بيوتاً مهدمة قديمة قيل لنا أنها كانت دوراً للقضاء ومدارس للتعليم وغير ذلك، ولقد أوحت إلي هذه المناظر القديمة بترديد قول ابن خفاجة الأندلسي:

فـإذا تـردد في جنابك ناظر طـال اعتبار منك واستعبار
أرض تقاذفت النوى بقطينها وتمـخـضـت بـخـرابـهـا الأقـــدار

وفي المساء شاهدنا في غرناطة احتفالاً دينياً أقيم ليلاً واستمر حتى آخر الليل ولقد زينت المدينة بأحلى حلة وامتلأت شوارعها بالجماهير.. ونصبت الكراسي في كافة الميادين والطرقات ليجلس عليها المشاهدون، وابتدأ الحفل بعزف قامت به فرقة موسيقية ثم تلاها حملة الطبول، ثم الخيالة تبع ذلك عشرات من الفتيات يحملن المشاعل والورود وأغصان الشجر والأعلام، ثم جاءت عربة ضخمة بها نموذج لصورة السيد المسيح من الذهب يحف بها رجال الدين والرهبان ورجال الجيش، ثم صفوف أخرى من الشباب تجللوا لباساً تنكرياً لا يبدو منه سوى عيونهم فقط وعلى رؤوسهم لفائف تشبه الطاووس واتجهوا إلى الكنيسة لأداء الصلوات.. وسهر الناس تلك الليلة حتى الصباح، وفي الصباح ودعنا مدينة غرناطة الجميلة ونحن نحمل أجمل الذكريات قاصدين مدينة قرطبة..

وقبل مغادرتنا مدينة غرناطة آخر ما كان يحتفظ به العرب إبان حكمهم والتي سقطت عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م عرجنا على متحفها الأثري لزيارته والاطلاع على ما يحتويه من آثار ولوحات وقطع، ومن ثم توجهنا إلى مدينة (قرطبة) قاعدة الحضارة الإسلامية الزاهرة ومركز العلم والمعرفة إذ ذاك.

وفي الطريق شاهدنا عشرات القرى التي ذكرتنا بماضيها وذلك بما كنا نلمحه من آثار عربية وأطلال دارسة مما يوحي بمجد قديم،

وقد مررنا في الطريق بعشرات المزارع والمناظر الخضراء الجميلة من كروم وزيتون، وبينما نحن نتأمل هذه المناظر بدت لنا معالم قرطبة، وبعد وصولنا ذهبنا للبحث عن الفندق الذي كنا نحمل اسمه، وبعد استراحة قصيرة خرجنا نطوف في شوارعها، وكم لهذه المدينة العريقة من ذكريات تاريخية رائعة فقد كانت من أعظم المدن الأندلسية وأجملها وكانت حافلة بالمعاهد ودور العلم ومقصد العلماء والشعراء والأدباء.

ومدينة قرطبة أصبحت حالياً مدينة أوروبية ذات شوارع أنيقة وتمتلئ بالمباني الحديثة إلى جانب الأحياء القديمة ذات الدروب الضيقة وهي المجاورة للمسجد الجامع – ولعل من أهم آثارها (جامع قرطبة الشهير) وذهبنا لزيارته وسط ممرات ضيقة ووصلنا (الجامع) الذي عاصر الأيام الذهبية والسنين الزاهرة، وبعد وصولي الجامع أحسست بشيء من الأسى والكآبة وخاصة حينما سرح بي الخيال وتأملت تاريخ هذا الجامع العظيم يوم كان ملتقى العلماء ووجدت آثار الإهمال وتحويله إلى كنائس حالياً، وحينما اجتزنا إلى داخل الجامع بهرنا مما يحويه من روعة البناء وعظيم التصميم ودقة الزخرفة – وتاريخ هذا الجامع يعود إلى عام ١٧٠هـ حينما قام بإنشائه عبدالرحمن الداخل الأموي، وقد أراد عبدالرحمن الداخل أن يكون هذا الجامع من أروع جوامع الأندلس، وقد توفي قبل أن يكمله فأتمه ابنه هشام، ثم قام الخلفاء من بعدهم بتوسعته وإدخال مزيد من الإضافات عليه، ويقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في

وصفه لهذا الجامع (يشغل مسجد قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً وعرضه مائة وخمسة وثلاثين متراً وهو أندلسي الطراز والمظهر بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره).

وللمسجد من قبل تسعة عشر باباً فخمة وقد زين بزخارف عربية جميلة، وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة ويحار البصر في تأمل عقوده وأعمدته العديدة المتقاطعة التي لا تدرك العين نهايتها وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر متراً، ولأول وهلة يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي ولكنه متى دقق البصر قليلاً أدرك في الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة بل إلى كنائس، فقد عدلت أسقفه على الطراز الكنسي وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى وحلت محل قبابه نقوش نصرانية وأنشئت على طول جوانب الجامع الأربعة من الداخل هياكل لا نهاية لها ونصبت فوقها الصلبان وتماثيل القديسين وصورهم، ولم يترك من جوانبه سوى المحرابين واحدهما قديم مخرب، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة ورسمت صور القديسين بين الزخارف، وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم إلى أوائل القرن السادس عشر ذلك أنه لما سقطت قرطبة في يد النصارى ودخلها فاتحها ملك قشتالة أقيم في الجامع قداس شكر واستمر الملوك الأسبان في إدخال تغييرات جزئية في أوضاع الجامع، وقد كان إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من أسبان

وغيرهم، وقد وصفه بعضهم بأنه أشنع عمل همجي ارتكب لتشويهه، وفي عام ١٩٥٣م أزيلت منارة الجامع القديمة وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالي، ولقد حمل العلماء الأثريون وفي مقدمتهم العلماء الأسبان على هذا التشويه لأثر من أجل الآثار الإسلامية ووصفه بعضهم بأنه تدليس للفن ولكن تذكرت قول شوقي:

تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان

ولكم تذكرت الأمس الرائع والحاضر اليائس المغلوب ورحم الله عبدالرحمن الداخل فقد كان هذا المسجد رمز الدولة الأموية في الأندلس وبعد أن أمضينا وقتاً طويلاً في جامع قرطبة وشاهدنا ما فيه من روعة وعظمة خرجنا لزيارة القصر المجاور له وهو قصر ضخم بني على الطراز العربي الأندلسي كان مقراً للخلافة – واتجهنا للدخول في مدخله الرئيسي ولا يزل بابه الضخم الكبير محتفظاً بقدمه وطابعه الشرقي، وعند مدخل الباب يوجد حراس ومرشدون، وبعد قطع تذكرة الدخول دلفنا إلى ساحة القصر وتجولنا في غرفه وقاعاته التي تبعث رؤيتها على شيء من الحزن والكآبة ، فكم شهد من أيام زاهرة وسيادة وعظمة مجد، وشاهدنا في داخل القاعات ومجالس السفراء والأروقة بعض النقوش العربية إلى جانب التحف التي كان يحتفظ بها الخلفاء، وفي جانب من القصر توجد حديقة كبرى تزينها البرك الواسعة والأشجار المتعددة، والخمائل الجميلة.

ولا تزال المياه جارية بين جنباتها، وصدفة التقينا بسائح لبناني فقام يحدثنا عن القصر وعن مياهه فروى على حد تعبيره قائلاً:

بـأن هـذه الميـاه التـي تجري هنـا لا تزال علـى مجراهـا الطبيعي يوم بني هذا القصر وأن المهندسين الأسباب يعترفون بالمهارة للمهندسين العـرب القدامى الذين قاموا بجلب هـذه المياه واستمرارها إلى اليوم – وهـو أمـر يدعـو إلى الفخـر والاعتـزاز، وبداخـل الحديقـة توجد أشجـار البرتقال بوفرة ووجدنا عشـرات السائحين يلتقطون الصور ويستمتعون بجو حديقة القصر الساحرة ونسماتها العليلة.

ومـن ثـم ذهبنـا لمشاهـدة القنطـرة المجـاورة للمسجـد الجامـع، وهـي كما يروى بناهـا الرومان وقام بتحسينهـا وتجديد بنائها حكام الأندلـس المسلمـون، وقمنـا بعد ذلـك بجولة سريعـة في داخل قرطبة لمشاهـدة الأحياء القديمـة التي لا تزال محتفظـة بالطابع الأندلسي ورؤيـة بعض المساجـد التـي حولـت إلى كنائس، ولكـم تذكـرت بهذه المناسبـة قـول أبـي البقـاء الرندي حين بكـى هذه المواطـن ورثى هذه الربوع بمرثيته الشهيرة التي كنا نحفظها قديماً:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأيـن شاطبة أم أيـن جيان
وأيـن قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن

أمـا مدينة الزهراء ذات المجد والصيـت الواسع التي قام بإنشائها الخليفة عبدالرحمن الناصر فقد أمحت ولم يبق لها إلا بعض أطلال دارسـة، وقـد كنا نقرأ عنها في التاريخ أنها من أروع المدن وأزهاها وأنه أنفقـت الأمـوال في تشييدها واستمر بناؤها ما يقرب من أربعين عاماً ونيفاً وأنه جلب لها من الأثاث وأدوات الزينة ما يبهر العقل، وسمعت وأنا في قرطبة أن هناك حفريات للبحث عن آثار هذه المدينة ومعالمها

التي ابتلعها الدهر وغمرها النسيان.

ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء ورائع ذكرياتها:

خليلي لا قطر يسر ولا أضحى ... فما حل من أمس مشوقا كما أضحى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل ... أنص بمخصوص الهوى ذلك السفحا

معاهد لذات وأوطان صبوة ... أجلت المعاني في الأماني بها قدحا

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح ... نقضت معانيها مدامعه نزحا

وفي المساء ذهبنا لزيارة بعض الحدائق والمتنزهات الحديثة ورؤية ما تبقى من السور القديم لقرطبة، والتجوال في أهم شوارعها الرئيسية الكبرى ومتاجرها الفخمة وميادينها الأنيقة.

وبعد انتهاء زيارتنا لقرطبة قلب الأندلس والتي قيل قديماً في وصفها: قرارة أولي الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم وينبوع متفجر اللوم، وبستان وقبة الإسلام، وودعناها بعد أن أمضينا في ربوعها وقتاً حافلاً بالمتعة الفكرية والعلمية، ومليئاً بالفائدة التاريخية، وذهبنا لمحطة القطار للتوجه إلى مدينة مدريد العاصمة.

وبعد أن ودعنا قرطبة عروس الأندلس ومدينة المجد والمعرفة والتي كانوا يقولون عنها قديماً إنها كانت من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، توجهنا صوب العاصمة مدريد – وأمضينا الليل كله في السير ولم نصل مدريد إلا في الصباح، وقد كنا نلمح في الطريق المدن والقرى المتناثرة ويبدو في تصميم أغلب بيوتها الطابع الأندلسي، وعلى جوانب الطريق كانت المناظر الخضر، الجميلة والغابات والمزارع

وأشجار الزيتون المنسقة.

ومدريد من أجمل المدن الأوروبية تمتاز بروعة التنسيق وجمال التصميم في مبانيها وبراعة التخطيط الهندسي وتزخر بالحركة والحيوية والنشاط وتكتظ بالسكان وإلى جانب ما تضفيه ميادينها الفخمة وحدائقها الغن التي تبهرك بحسنها الفتان وتنسيقها البديع من بهاء وفخامة ورواء.

ومن أجمل ما في مدريد شارعها الضخم الفسيح الذي يمر بوسط العاصمة وعلى جوانبه المنتزهات والمحلات التجارية والميادين التي تجملها النافورات، وخلال إقامتنا بمدريد تمكنا من زيارة – لأغلب الأماكن السياحية والمشاهد الأثرية وبعض المتاحف التي تحوي بعض الآثار والزخارف العربية الإسلامية.. وأخيراً فإن الديار الأندلسية والبلاد الأسبانية كلها مثار ذكريات للزائر العربي فكلها حضارة ومجد وفن وعمران.

مصارعة الثيران:

ولعل من الظواهر التي تلفت نظر السائح في أسبانيا هي مشاهدة مصارعة الثيران، وبعد قطع تذكرة الدخول التي تباع في كل مكان ذهبنا إلى ميدان المصارعة ووجدناه مزدحماً بالجماهير ومصوري السينما والتلفزيون والصحافة، ومليئاً بأفواج من السائحين الذين جاءوا لمشاهدة هذه اللعبة – وبعد صعوبة تمكنا من الدخول – ولقد كان مشهداً مثيراً – ويبتدئ الدور الأول بأن يفتح الباب ويدخل الثور التعيس إلى مكان المصارعة ويأخذ يصول ويجول بقرونه الطويلة ومن

ثم يدخل أحد الشبان ممتطياً جواداً وفي يده آلة حادة طويلة ويظل في صراع ومبارزة مع الثور إلى أن يتمكن منه ويغرس في جوفه الآلة التي في يده إلى أن ينزف دمه ومن ثم يعود مرة أخرى، وبعد تسديد الضربتين يخرج الشاب بجواده من الحلبة بحيث يأتي مجموعة من الشبان يأخذون في مصارعة الثور بعد أن يكون قد فقد شيئاً من حيويته ونشاطه وضعفت مقاومته، ويستمرون في التلويح له وإثارته – بشارة حمراء وكلما رفعت للثور استشاط غضباً وهياجاً واندفاعاً ويزداد هجومه وتقوى مقاومته يتصدى له أحد الشبان فيغرس في جوفه سكيناً إلى أن تخور قواه وتتضاءل مقاومته فيخر صريعاً ويسقط على الأرض، وبعد سحبه من حلبة المصارعة يدخل ثور آخر وهكذا دواليك تستمر عملية النزال والطعان وقد شهدنا مصرع سبعة من الثيران تمكن بعضها من جرح خمسة من المصارعين واستمر وقت المصارعة ساعة ونصفاً.

والواقع أنه مشهد مؤلم يثير الامتعاض والأسى إذ كيف يهضم هؤلاء تعذيب الحيوان بهذه الصورة البشعة التي تتنافى مع الدين والخلق والذوق؟

ومهما قيل في تبرير ذلك أنها مورد سياحي هام ومصدر دخل كبير فإن أسلوب المصارعة بهذه الآلات الحادة غير لائق أبداً إذ هو تعذيب للحيوان المسكين الذي نادت التعاليم الدينية بالرأفة والرفق به، وخرجت من ميدان المصارعة وأنا أحمل أسوأ الذكريات وأقسى الانطباعات.

وبعد زيارة لأهم معالم مدريد السياحية ذهبنا إلى مدينة الحسيراس متوجهين صوب مضيق جبل طارق ومشاهدة ما يحويه

من معالم وآثار ومرافق سياحية ومن جبل طارق ركبنا البحر قاصدين مدينة طنجة الثغر المغربي الباسم حيث تمكنا من زيارة أهم، المدن المغربية كالرباط والدار البيضاء ومراكش وفاس.

حقاً إن كل ما في الأندلس يملأ قلب العربي اعتزازاً بتاريخ أمته كما يملأها إعجاباً بتلك الحضارة التي خلفتها أمته هناك في ربوع الأندلس، فإن ما يشاهده المرء مع ملايين السياح من كل شعوب الأرض في قصر الحمراء وفي جامع قرطبة وفي جنة العريف وقصر إشبيلية وطليطلة وملقة وبلنسية وسرقسطة ورنده وطريف وجبل طارق والجزيرة وقادس.. الخ كل ذلك يوحي بالفخر والاعتزاز، والمجد التاريخي العريق.

وكانت تلك المدن تزخر بالعديد من الشعراء والعلماء والأدباء والمؤرخين وكانت الثقافة الإسلامية الواسعة الغنية التي فرضت نفسها على الدنيا أجيالاً طويلة، وكان العلماء والشعراء والفلاسفة يرحلون إليها من كل قطر للتزود من العلم والثقافة والمعرفة، والحديث عن تاريخ الأندلس وآثاره طويل ولكم تأثرت وأنا أقف في مكان خارج غرناطة ذهب بنا المرشد إليه وقال إنه يدعى زفرة العربي وهو المكان الذي وقف فيه أبو عبدالله آخر ملوك غرناطة حيث ألقى نظرة الوداع على الملك المضاع وهناك قالت له أمه البيت المشهور:

إبك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولكم رددت هذا البيت وكانت الدموع تنهمر من عيني:

أمامي الأمجاد منثورة قصائد ما صاغها شاعر

في مكتبة الأسكوريال بمدريد

إن الحديث عن الثقافة في الأندلس متشعب الأطراف متنوع العناصر ويحرص المرء على استنباط العبرة منه. وبعد زيارة للمناطق الأندلسية ذهبت إلى مدريد وهي مدينة حافلة بالمعالم السياحية والمشاهد الأثرية، ومكتبة الأسكوريال.. والمكتبات في كل أمة عنوان رقيها ودليل تطورها.. فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلها وتسهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل وتتحف عشاق المعرفة ورواد العلم والآداب.. بينابيع ثرة من المعارف والفنون والعلوم.. ومكتبة الأسكوريال من المكتبات التي تستأثر باهتمام الزائرين إذ يحرص كل فرد مهتم بالمعرفة على زيارتها.. حيث أن شهرتها تجذب الناس إليها خاصة وأنها تمتلئ بتراث ضخم من الكتب النادرة والمخطوطات القيمة التي تعد ينبوعاً دائماً للحضارة الإنسانية والثقافية الفكرية..

وبعد زيارة لمدريد ومعالمها.. خرجت نحو مدريد القديمة ومراكزها الأثرية..كما قمت بزيارة لبعض الأمكنة والميادين القديمة فيها، ذات القيمة التاريخية وجولة في ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة والمركز الإسلامي الثقافي الذي له نشاط ثقافي ومجلة دورية تعني بالبحوث التاريخية والمخطوطات باللغتين الأسبانية والعربية..

وفي صباح يوم جميل توجهت نحو الأسكوريال وقطعنا حوالي خمسين كيلاً فوصلنا إلى تلك المنطقة التاريخية والتي يعتبرها الأسبان إحدى عجائب العالم، حيث تضم الكنيسة والقصر والمقبرة

الملكية والدير والمدرسة الملحقة بها، وبها أمكنة مختلفة. وبعد تجوال في المنطقة، توجهنا نحو مكتبة الأسكوريال الشهيرة والتي يوجد بها بقايا التراث الأندلسي الفكري.. وهي تقع في الجهة اليمنى من القصر وتضم بهواً واسعاً تعرض فيه مجموعة من المخطوطات التي تحتويها المكتبة ومنها مصحف كان لأحد سلاطين المغرب..

ومكتبة الأسكوريال ليست غنية من الناحية الكمية، فهي تحوي أكثر من سبعين ألف مجلد ولكنها غنية بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط، ويبلغ ما تحتويه من المخطوطات العربية ألفي مجلد على حد تعبير أمينة المكتبة.

وهذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها، جمهرة الباحثين من سائر العالم كانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك فيليب من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جُمعت من غرناطة بعد سقوطها.. ومن سائر المدن الأندلسية، ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث حينما استولت السفن الأسبانية في مياه المغرب سنة ١٦١٢م .. على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة سلطان مراكش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم ولفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الأسكوريال في أوائل القرن السابع عشر، نحو عشرة آلاف مجلد.. ثم في عام ١٦٧١ شب حريق في القصر قضى على

جلها من الكتب فلم يبق سوى ألفي مجلد هي التي توجد اليوم في المكتبة.

بعد تمضية بضع ساعات في داخل القصر ومشاهدة المتحف واللوحات والمكتبة توجهنا بعد ذلك إلى وادي الشهداء الذي لا يبعد إلا قليلاً من الأسكوريال وقد بنى الجنرال فرانسيسكو فرنكو كنيسة داخل جبل، وأقام في قمة الجبل صليباً هائلاً تخليداً لشهداء الحرب الأهلية الأسبانية، وعمق الكنيسة داخل الجبل حوالي ٣٥٠ متراً ، وعرضها ٢٥ متراً، تزين الكنيسة لوحات من الداخل وفي نهاية الكنيسة في القبة الرئيسية لوحة تحتوي على رسوم من قطع المزايكو الصغير، ويقال إن عدد القطع ثمانية ملايين قطعة، وعلى جوانب الكنيسة، تقع مدافن بعض ضحايا الحرب وقد قُبر الجنرال فرنكو في نهاية الكنيسة ثم غادرنا المنطقة وأخذنا طريقنا نحو العاصمة مدريد بين جبال خضراء، وكنت أقوم انطباعاتي عن الأندلس ماضيها وحاضرها في ضوء ما شاهدته في الأسكوريال، وتذكرت ما سبق أن قرأته عن حرص الأسبان على إخفاء الآثار الإسلامية عن نظر كل باحث حيث كانوا يخشون أن يتسرب الإسلام إلى تفكير وروح أبنائهم فدفنوا الكتب في هذا القصر والذي صار اليوم مزاراً للسائحين والمهتمين بالتاريخ والكتب والآثار.

جامع قرطبة أروع أثر إسلامي في إسبانيا

قرطبة هي جوهرة الدولة الإسلامية في الأندلس وحاضرتها الكبرى.

ولقد كان حرصي شديداً في الزيارة التي قمت بها لأسبانيا مرة أخرى أن أزور مدينة غرناطة حيث يقع قصر الحمراء ولا شك أن ما شاهدته في هذا القصر التاريخي العظيم من زخارف وخطوط وحدائق غناء وكتابات وغيرها تفوق الصورة التي تصورتها في مخيلتي من خلال ما اطلعت عليه وقرأته عن ذلك حقاً أنه لصرح عربي إسلامي يشهد بحضارة وتقدم المسلمين وما قاموا به من دور عظيم في التاريخ الإنساني والحضارة الإنسانية وأرست دعائم الفكر والمعرفة في العقول والنفوس ولقد سئل أسلافنا خلال فتوحاتهم فقد قيل لهم ما الذي جاء بكم؟ وكان جوابهم: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، كما جاء ذلك في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الجزء السابع صفحة ٢٩ .

فالحضارة الإسلامية أثرت العلوم الإنسانية على اختلاف أنواعها.. وبعد فإن الزائر لبلاد الأندلس يخيل إليه أنه في أرضه وبلاده إذ أن آثار العرب والمسلمين باقية شامخة سامقة لها ملامحها وبصماتها الخاصة تجسد وتشهد بما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في تلك الربوع من رقي وتقدم على الرغم مما اعتراها من إرهاصات

وأعقبها من عواصف ولنعد إلى قرطبة فقد افتتحها المسلمون في عام ٩٧هـ، وبقيت تنمو وتزدهر اتساعاً وعمراناً ولكم أسهب المؤرخون في الحديث عنها وأفاض الباحثون في تعداد مآثرها ومفاخرها وعلمائها وشعرائها وأدبائها. حيث حفلت بأزهى الأيام ولقد قيل:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أكبر شيء وهو رابعها

فلقد أنجبت أفذاذ العلماء وفحول الشعراء وفطاحل الأدباء، وكانت قاعدة الحضارة الإسلامية الزاهرة ومركز العلوم والمعرفة ولكم رددت قول الشاعر:

يا حسن قرطبة في ثوب بهجتها لا غرو إن أسرت قبل السلاطينا
رأيتها والقباب البيض تحجبها مثل الجواهر بل بالحب مشحونا

ولكم تنامت في أشواق التاريخ والذكرى والحزن حين وقفت في محراب جامع قرطبة أصلي في رحابه فكم تليت فيه من آيات يشتاق اليوم لسماعها.

وفي هذه المدينة يشاهد المرء حشوداً غفيرة من السواح من مختلف الجنسيات غصت بها ساحات المدينة ولكم تذكرت ما كانت تحفل به هذه المدينة من دور العلم والقضاء والندوات الأدبية ومجالس الشعراء وأعلام البيان وأساطين المعرفة وما خلفه أولئك من تراث غزير وعلم نافع مفيد ولعل من أهم آثارها الباقية اليوم (جامع قرطبة الشهير) وذهبنا لزيارته وسط ممرات ضيقة ووصلنا الجامع

الـذي عاصر المجد والأيـام الزاهرة الذهبية والخلفاء والعلماء.. ومع مـا لحقه من إهمـال ودمار وخراب فمـا زال متألقـاً بالروعة والهيبة والجـلال والجمال رغم تحويلـه إلى كنائس فما زالت روعة التصميم ودقـة البنـاء والزخرفـة بادية وواضحة وتاريخ هـذا الجامع يعود إلى عـام ١٧٠هـ حينما قام بإنشائه عبدالرحمن الداخل الأموي ولقد أراد أن يكـون هـذا الجامع من أروع الجوامـع في الأندلس ولقد توفي صقر قريش قبـل أن يكملـه فأتمه ابنـه هشام ثـم قام الخلفاء مـن بعدهم بتوسعته وإدخال مزيد من الإضافات عليه ولقد وصفه المؤرخ الأستاذ محمد عنان أن قائلاً: يشغل مسجد قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً وعرضه مائة وخمسة وثلاثين متراً وهو أندلسي الطـراز والمظهـر بمعالمـه وأوضاعه ونوافيره والمسجد مـن قبل تسعة عشـر باباً فخمة وقد زين بزخارف عربية جميلة ويحار البصر في كل عقـوده وأعمدته العديدة المتقاطعة التـي لا تدرك العين نهايتها تبلغ عقـوده في الطـول تسعة وعشرين ويبلغ ارتفـاع سقفه نحو اثني عشر متراً ولأول وهلة يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي ولكنه متى دقـق البصـر قليلاً أدرك في الحـال أن المسجد قد استحـال إلى كنيسة بـل إلى كنائـس فقد عدلت أسقفه على الطراز الكنسي وأزيلت القباب القديمـة ما عدا القبـة الرئيسية الوسطى وحلت محـل قبابه نقوش نصرانيـة .. الـخ لا أريد أن استمر في نقل الصورة المؤلمة فقد أحسست بشيء من الكآبة والأسى والألم حينما كنت أطوف بين أرجائه وأتأمل تاريخـه المجيـد وماضيه الزاهـر وحاضره الموجع المؤلم وصعدت إلى

مئذنة المسجد ووقفت في أعلاها قرب ناقوس كبير أنظر إلى قرطبة وأحيائها المجاورة للمسجد ولكم تذكرت قول الشاعر:

لك الله لا توقظ الذكريات وخل الأسى في الخبايا دفينا

وكذا قول أبي البقاء الرندي حين بكى هذه المواطن ورثى هذه الديار وبكى هذه الربوع بمرثيته الشهيرة:

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن

وأين حمص وما تحويه من نزه فنهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان العلوم فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

وهي قصيدة مؤثرة على أيام مضت لكنه دهر مضى ليس يرجع وهكذا ودعنا قرطبة التي قالوا عنها قلب الأندلس ووطن أولي العلم ودرة القرائح وقلب الإقليم وينبوع متفجر العلوم.. حقاً إن من يزور الأندلس يتذكر الأمجاد التي سطرها المسلمون وهو يتجول في رحابه وسيحف به التاريخ وتتجسد أمامه الصورة والآثار الخالدة وذكريات الأيام المجيدة.

إن تلك الآثار سواء في غرناطة وقرطبة وإشبيلية وغيرها لا تزال شاهدة بفنها وهندستها وعظمة الفكر الذي أبدعها فهي تجسد الحضارة العربية الإسلامية فكل شبر من تلك الأرض قد وطأته أقدام أولئك الأسلاف من المسلمين الأماجد وكل شيء فيها يستوقف المرء ليحكي قصة وشاهداً أعجب ما فيها أنها أمر واقعي .. وقد قيل:

وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شأن

ورحم الله أسلافنا الذين فتحوا هذه المنطقة الخضراء من أوروبا ورحم الله طريف وطارق وموسى بن نصير ورجالهم وما امتازوا به من عزيمة وصبر ومغامرة وطموح ولقد كنت أتأمل مقولة موسى بن نصير في وصفه للأندلس «شامية في طيبها وهوائها يمنية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها أهوازية في جباياتها صينية في معادن جواهرها عدنية في منافع سواحلها أن الحديث عن الأندلس حديث مستطاب ذو شجون يستهوي الفؤاد ويأخذ بمجامع الألباب ولقد قيل:

وإذا ما هبت الريح صبا صحت أشوقي إلى الأندلس

ومتى زار المرء هذه الربوع الأندلسية سيتذكر التاريخ والأدب وسيجد وقته حافلاً بالمتعة الفكرية والعلمية ومليئاً بالآثار والفوائد التاريخية.

جولة في جبل طارق

كلما زرت منطقة من مناطق الأندلس شعرت بسعادة غامرة ذلك أنها تجدد الصلة بتاريخ أمتنا وأمجادها وتراثها ومن ذلك جبل طارق .

والذي يقول الشاعر الأندلسي صفوان بن إدريس في وصف جبل طارق:

وطود لو تزاحم منكباه نظام النجم لانتشروا انتشارا

وقد شمخ الوقار به ولكن وقار ذويه علمه الوقارا

رأيتها فرصة طيبة أن أقوم بزيارة لجبل طارق رغبة، في الاطلاع وحرصاً على اكتساب المعرفة سيما وهو حافل بالآثار الإسلامية وشهد مرحلة تاريخية هامة ولعب دوراً رئيسياً في الفتوحات الإسلامية لأسبانيا وغيرها من البلدان الأوروبية فقد وصل إليها الجيش العربي الإسلامي بقيادة البطل الشجاع طارق بن زياد فاتح البلاد الأندلسية حين توسم فيه مولاه موسى بن نصير والي إفريقية في خلافة الوليد بن عبدالملك قوة العزيمة وصلابة الرأي والقدرة على إدارة الجيش والتأثير فيه ويحدثنا التاريخ بأنه قد ركب وجنده أربع سفن وكانوا سبعة آلاف رجل من المجاهدين المؤمنين . وعندما علم لذريق حاكم أسبانيا بنزول الجيش الإسلامي في الجزيرة الخضراء أعد جيوشه لمنازلة المسلمين وقتالهم ولم يفت ذلك في عضده بل أخذ

بفتح القلاع والمدن حتى بلغ جيشه اثني عشر ألفاً واستطاع أن يقهر جيش لذريق حيث هجموا على عدوهم وتقدم طارق إلى لذريق فضربه وقتله وحلت الهزيمة بجنده ولقد كان لخطبة طارق الشهيرة أكبر الأثر وأبلغ الحماس حيث حثهم فيها على الجهاد والصبر والإيمان.

وفي ذلك تقول الأنشودة الأسبانية مصورة أبلغ تصوير ذلك اليوم وما آلت إليه حالة لذريق:

ومزق جيش لذريق وخارت ... بمن فيه العزائم والقلوب
وحين رأى الهزيمة فر يبدو ... وحيدا مستكينا لا يؤوب
عليه من ثياب الحرب ثوب ... ومن لون الدماء به لهيب
وتحمل كفه سيفا خضيبا ... كمنشار أفلته الحروب
فلأمة رأسه فيها شقوق ... وخوذة رأسه فيها ثقوب
أطل بقمة فرأى دمارا ... له كادت حشاشته تذوب
وأعلاما ممزقة تبدت ... وكل بالدم القاني خضيب
رأى قواده فروا وأبقوا ... جريحا أو قتيلا لا يجيب
فقال وقد بكى قد كنت ملكا ... وماذا ينفع الآن النحيب
ونمت الأمس فوق فراش عز ... وفرشي اليوم تجفوه الجنوب
جثا الخدام أمس أمام عرشي ... وليس اليوم لي منهم عريب
فيوم ولادتي يوم عبوس ... ويوم ولايتي يوم عصيب
فما أشقى نهاري حين أرنو ... لشمس الأفق يحجبها المغيب
فعجل أيها الموت المرجى ... فمالي اليوم في الدنيا حبيب

وجبل طارق سكانه خليط من الأسبان والإنجليز وقليل من الهنود الذين يمارسون أعمالاً تجارية.

وصخرة جبل طارق يشاهدها المرء من مسافة بعيدة جداً فهي مرتفعة فقد كنا نشاهدها بوضوح وجلاء في الأراضي الأسبانية ولا يزال الجبل معروفاً ومشهوراً باسم جبل طارق وبعد أن تركنا آخر الأراضي الأسبانية وقفنا عند مركز الدخول صوب الجبل وسط طابور كبير من السائحين الأوروبيين والأمريكيين الذين يصلون إلى هذا الجبل أفواجاً لزيارة ما فيه من آثار تاريخية ومعالم أثرية قديمة..

وبعد السير بضع دقائق دخلنا مدينة جبل طارق وتقع على سفح الجبل وتمتاز بمناظرها الساحرة ومتاجرها الأنيقة وشوارعها النظيفة وتزخر بالحركة والنشاط السياحي إلى جانب كونها سوقاً دولية حرة تباع فيها البضائع بأزهد الأثمان مما يغري السائح على مضاعفة الشراء ورجوعه خاوي الوفاض وللوصول إلى جبل طارق طريقان طريق بحري وهو بالنسبة للقادم من أفريقيا والمغرب العربي وطريق بري بالنسبة للقادم من أسبانيا وأوروبا.

ويوجد بالمدينة سور قديم يرجع تاريخه إلى أيام المسلمين إبان فتوحاتهم إلى جانب بعض الآثار الأندلسية التي أخذت في التلاشي والاندثار. كما يوجد متحف يحتوي على بعض الآثار الإسلامية والواقع أن هذا الجبل غني بالذكريات فقد كان دعامة كبرى للجيوش الإسلامية وعاصماً لها من الأخطار التي كانت تحدق بها وكان بمثابة

همـزة الوصـل بين أوروبـة والمناطـق الإسلامية وطالمـا نشبت المعارك وقامـت الحـروب بـين المسلمـين والأسبـان في محـاولات الاستئثار به وبسـط النفـوذ عليه لكونه ذا أهميـة استراتيجية وممر مائي حيوي. وقاعـدة حصينـة للجيوش ممـا يدل علـى فعاليته ولكم تذكـرت وأنا أطـوف بين شـوارع المدينة وخارجهـا وعلى سفح الجبـل خطبة طارق الرائعة حيث يقول لجنده: (أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعـدو أمامكـم وليـس لكـم والله إلا الصـدق والصبر واعلمـوا أنكم في هـذه الجزيـرة أضيع مـن الأيتام علـى مأدبة اللئام وقـد استقبلكم عدوكـم بجيشـه وأسلحتـه موفورة وأنتـم لا وزر لكـم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركـم ولم تنجـزوا لكـم أمراً ذهـب ريحكم وتعوضـت القلوب من رعبهـا منكم الجـرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خـذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهـاز الفرصـة فيـه لممكن إن سمحتـم لأنفسكم بالمـوت وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوه ولا حملتكم دوني على خطة أرخص متاع فيهـا النفوس أبداً بنفسي واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشد قليلاً استمتعتـم بالأرفه الألذ طويلاً فلا ترغبوا بأنفسكم عني فما حظكم فيـه بأوفـر من حظي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانـاً ورضيكم لملوك هذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون

لكم ذكراً في الدارين واعلموا أني مجيب إلى ما دعوتكم إليه وإني عند ملتقى الحملين حامل بنفسي على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله).

حقاً ما أروع هذه الخطبة فقد كانت حافزاً كبيراً للجند ودافعاً قوياً للبسالة والتضحية ولقد أورد كثير من المؤرخين القدامى أن سقوط الجبل واستيلاء الأسبان عليه كان عاملاً كبيراً في انهزام المسلمين في الأندلس وضياع ملكهم. وبعد قضاء وقت ممتع في التجوال في هذه المدينة التاريخية ركبنا البحر متوجهين إلى مدينة (طنجة) المرفأ المغربي الجميل مردداً مع الشاعر العربي الأندلسي قوله :

لله يا جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر في الأجيال مذكور

على ربى جبل طارق

وبعد زيارة لجبل طارق في الأندلس ودعته بهذه القصيدة:

صفحات مجدك لا تزال مضيئة ... وعلى جوانبه الشذا ينثال

فهنا الفتوحات المجيدة سطرت ... وبعزم طارق تضرب الأمثال

عرفوه رمز بطولة وبسالة ... فهو الشجاع تجله الأبطال

قاد الجنود بحكمة وبطولة ... عبر المضيق وموجة الأهوال

وتقابل الجيشان في أرض الوغى ... فإذا بطارق ضيغم رئبال

صدم العدو بقوة وبسالة فتزلزلت من بأسه الأرتال
وإذا «بليذريق» ويجثو مذعنا والعين إن نطقت تقول محال
خمسون ألفا تلتقيهم ثلة وسيوفهم في هامنا تنهال
عاشوا إذا من بعدها في ذلة موتى غريقا سترة الأوحال
ومشيت وسط دروب طارق ذاكرا مجدا له التقدير والإجلال
شاهدت وقع خيولهم ورماحهم الله أكبر تلكم الأطلال
وصعدت صخرة طارق وإذا بها مجد الفخار بعزهم تختال
وعلى ذرا أرض الفرنجة رفرفت راياتنا وانزاحت الأغلال
وتفاءل الضعفاء في إنصافنا ولقد محا ليل الظلام هلال
عاشوا السلام بأنفس معتزة وبطارق تتحقق الآمال
يا أرض أندلس فديتك خبري عن مجد آبائي أفيه ضلال؟
أم كان ظلا وارفا وحضارة سعدت بفضل شموخها الأجيال
أضفوا على البلدان نورا فارتقت عزا وأورق للعلوم ظلال
وتبدلت شهب الرمال بنضرة وتزينت بالباسقات جبال
ودعيت بالخضراء في عهد الهدى وتألقت في العالمين خصال
يا أرض أندلس إليك تحيتي في مقلتيك يسرني الترحال
أو ما ذكرت جدودنا وخصالهم فيما مضى سحر لهم وجمال

وبعد: فهذه لمحات موجزة قاصرة عما ينبغي إيضاحه عن تلك البلاد مما يتطلع إليه ولقد أبقت تلك الرحلات في نفسي أبلغ الأثر

وأجمل الذكرى أما من أراد معرفة جميع أحوالها ومدنها وتاريخها فقد عني علماؤها ومؤرخوها بتدوين ما يتعلق بها من مختلف جوانب الحياة مما يتطلع إليه كل باحث.

ولم يبق لي من تلك الرحلات التي انقضت إلا الذكريات مردداً قول أبي تمام:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ندوات ومؤتمرات شارك فيها المؤلف

ولقد شاركت في عدة مؤتمرات محلية وعربية ودولية منها:

١- المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، مكة المكرمة ١٣٩٤/٣/١هـ.

٢- مؤتمر المدينة العربية وقد ألقيت بحثاً فيه بعنوان: «أهمية الحفاظ على التراث العربي الإسلامي للمدن العربية» في ١٤٠١/٤/٢٩هـ في المدينة المنورة.

٣- مؤتمر المنظمة العربية للتراث والثقافة والذي انعقد في طرابلس ١٣٩٦هـ، وقد ألقيت فيه بحثاً بعنوان: «تطور التعليم في المملكة العربية السعودية».

٤- المؤتمر العالمي للوثائق المنعقد في لندن سنة ١٣٩٩هـ.

وقد انتخبت عضواً في لجنة الصياغة، وألقيت بحثاً عن الوثائق بدارة الملك عبدالعزيز.

٥-المؤتمر التعليمي المنعقد في تونس سنة ١٤٠٠هـ، وألقيت فيه بحثاً بعنوان: « رؤية تربوية لقضايا تعليمية وتربوية».

٦- المؤتمر الجغرافي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠١هـ وألقيت بحثاً بعنوان: «الأماكن الجغرافية في بلادنا».

٧- المؤتمر الدولي للوثائق والمخطوطات المنعقد في إسلام أباد سنة ١٤٠٢هـ، وقد ألقيت بحثاً بعنوان: «وثائق ومخطوطات» في مكتبات ومتاحف العالم.

٨- المؤتمر الخامس للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة

بدراسات الخليج والجزيرة العربية سنة ١٤٠١هـ، وقد ألقيت بحثاً بعنوان: «المسؤولية التاريخية لدارة الملك عبدالعزيز».

٩- المؤتمر السابع للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية المنعقد في مدينة فاس ١٤٠٣هـ، وقد ألقيت بحثاً بعنوان: «دور دارة الملك عبدالعزيز في إحياء ونشر التراث الإسلامي».

١٠-المؤتمر الثامن للمراكز والهيئات العلمية المنعقد في صنعاء ١٤٠٦هـ، وألقيت بحثاً بعنوان: «أهمية إبراز خصائص التاريخ الإسلامي».

١١- المؤتمر التاسع للمراكز والهيئات العلمية المنعقد في أبوظبي ١٤٠٧هـ، وألقيت بحثاً بعنوان: «الصلات التاريخية بين الدولة العثمانية ودول الخليج العربي».

١٢-ندوة محمد الخامس الدولية وقد ألقيت فيها بحثاً بعنوان: «محمد الخامس بطل التحرير» الرباط ١٤٠٨هـ.

١٣- المؤتمر العالمي الثالث للوثائق العثمانية، تونس ١٤٠٧هـ.

١٤- المؤتمر العالمي الرابع للأرشيفات في تونس ١٤٠٨هـ.

١٥-المؤتمر العالمي لتاريخ الملك عبدالعزيز بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦هـ، وألقيت فيه بحثاً بعنوان: «وميض من سيرة الملك عبدالعزيز ، ظاهرة توطين البادية».

١٦-مهرجان ابن زيدون، الرباط ١٤٠٩هـ، وقد ألقيت بحثاً بعنوان: «قراءة في شعر ابن زيدون».

١٧- مؤتمر مراكز البحوث والهيئات العلمية في جامعة البصرة ٢٠/٥/١٤١٠هـ وقد ألقيت فيه بحثاً بعنوان: «تراثنا المخطوط في مكتبات ومتاحف العالم».

١٨- ندوة المؤرخين في بغداد ٢٧/٥/١٤١٠هـ وقد ألقيت فيها بحثاً بعنون: «المستشرقون والدراسات التاريخية».

١٩- المؤتمر العالمي لأبي بكر بن العربي نظمته جامعة سيدي محمد بن عبدالله بمدينة فاس – المغرب ٢٦/٧/١٣١٣هـ، وقد ألقيت بحثاً بعنوان: «أبوبكر بن العربي اللغوي الأديب».

٢٠- الملتقى الفكري والتربوي بجامعة العين بدولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٤١٣هـ.

٢١- ندوة محمود سامي البارودي (القاهرة) ١٤١٤هـ.

٢٢- ندوة «صلاح الدين الأيوبي» الرباط وقد شاركت ببحث فيها بعنوان: «صلاح الدين بطل حطين» ١٤١٤هـ.

٢٣- ندوة المؤرخين العرب بعنوان: «الحضارة الإسلامية وعالم البحار» وقدمت فيها بحثاً بعنوان: «أحمد بن ماجد رائد علم البحار» ٢٤/٥/١٤١٤هـ.

٢٤- ندوة أبي القاسم الشابي، فاس ١٤١٥هـ وقدمت مداخلة بعنوان: «مواهب الشابي الأدبية وفنه الشعري».

٢٥- ندوة المؤرخين العرب في القاهرة ٢٥/٦/١٤١٥هـ بعنوان: «الصراع بين العرب والاستعمار الأوروبي ١٤٩٨م – ١٧٩٨م.

٢٦- ندوة الشعر والتنوير في أبوظبي ١٥-٦-١٤١٧هـ.

٢٧- ندوة أبو فراس الحمداني في الجزائر ١٤٢١هـ.

٢٨- ندوة سعدي شيرازي في طهران ١/٤/١٤٢١هـ.

٢٩- ندوة أدب الرحلة في الحج بمكة المكرمة ٤/١٢/١٤٢٢هـ.

٣٠- ندوة المؤرخين العرب في القاهرة بعنوان: «أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب في ٢٧/١١/١٩٩٨م.

٣١- المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ٥/٨/١٤١٩هـ، وقد ألقيت بحثاً بعنوان: «حول واقع الكتاب السعودي وأهمية انتشاره».

٣٢- ندوة المؤرخين العرب في القاهرة بعنوان: «العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ».

٣٣- الملتقى الثقافي الأول في تبوك ٥/٩/١٤٢٩هـ.

٣٤- ملتقى الجمعية التاريخية السعودية في أبها ١٥/٢/١٤٣٠هـ.

٣٥- الملتقى الشعري الثالث في جازان ١/٣/١٤٣٠هـ.

٣٦- ندوة المؤرخين العرب في القاهرة بعنوان: «القدس عبر عصور التاريخ» ١٤٣٠هـ.

٣٧- مؤتمر الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف بالجامعة الإسلامية ١٥/٤/١٤٣١هـ.

٣٨- ندوة (جهود المملكة في خدمة القضايا الإسلامية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) ١٥/١/١٤٣١هـ.

٣٩- مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بعنوان: «الربانيون وراثة النبوة وعظم المسؤولية» الذي عقد في مدينة سيئون في حضرموت ١٩/١١/١٤٣١هـ.

٤٠- المؤتمر العالمي للأوقاف في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٣٢/١/١٧هـ.

٤١- ملتقى الشعر من أجل التعايش السلمي في دبي ١٤٣٢/١١/١٦هـ.

٤٢- فعاليات سوق عكاظ وندواته الثقافية ١٤٣٢هـ.

٤٣- ملتقى المثقفين السعوديين الثاني ١٤٣٣/٢/١هـ.

٤٤- المؤتمر الدولي بعنوان: اللغة العربية ومواكبة العصر الذي أقامته الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ١٤٣٣/٥/١٧هـ.

٤٥- الملتقى التاريخي الثالث عشر في سلطنة عُمان في ١٤٣٣/٦/٣هـ.

٤٦- ندوة المؤرخين العرب في القاهرة ١٤٣٣هـ.

٤٧- ندوة مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية ١٤٣٣/٦/١٠هـ.

وغيرها من الندوات والمؤتمرات والملتقيات.

كتب صدرت للمؤلف

١- كلمات متناثرة.

٢- رحلات وذكريات.

٣- على مائدة الأدب.

٤- مراحل إعداد المعلم في المملكة.

٥- رمضان عبر التاريخ.

٦- في التربية والثقافة.

٧- صور من الغرب.

٨- من أدب الرحلات.

٩- المفيد في الإنشاء.

١٠- الشذرات في اللغة والأدب والتاريخ والتربية.

١١- توحيد المملكة العربية السعودية وأثره في النهضة العلمية والاجتماعية.

١٢- رحلات إلى الشرق والغرب.

١٣- يوم في ذاكرة التاريخ.

١٤- شعاع في الأفق «ديوان شعر».

١٥- عبق السنين «ديوان شعر».

١٦- رفقاً بالفصحى.

١٧- مسيرة التوحيد والبناء «لمحات تاريخية».

١٨- كتب ومؤلفون.

١٩- في آفاق التربية وأفياء التعليم.

٢٠- آفاق فكرية وشجون تربوية.

٢١- صور من أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين.

٢٢- رحلة إلى اليابان.

٢٣- اللغة العربية هوية وانتماء.

٢٤- رحلات وذكريات في ربوع بلادي.

٢٥- رحلات الحج في عيون الرحالة وكتابات الأدباء والمؤرخين.

٢٦- رحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس.

٢٧- صور من أدب الرحلات رؤية أدبية تاريخية.

- إلى جانب بحوث ومقالات في الصحف والمجلات الفصلية والشهرية وأحاديث في الإذاعة والتلفاز، وإسهامات إعلامية كثيرة.
- لديه عدد من المؤلفات والدراسات الأدبية والتاريخية ستأخذ إن شاء الله طريقها إلى النشر.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

تصدير بقلم معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر..... ٣

مقدمة..... ٧

في ربوع الخليج العربي..... ١٠

-الكويت..... ١٠

-البحرين..... ١٣

-قطر..... ١٥

-الإمارات العربية المتحدة..... ١٦

سلطنة عمان..... ١٩

رحلة إلى صلالة..... ٢٧

أيام ثقافية على ضفاف الخليج في الكويت..... ٣١

قصائد في مناسبات تاريخية في دول مجلس التعاون الخليجي..... ٤١

رحلة إلى اليمن..... ٥٢

في بلاد الأحقاف..... ٦١

في أرض الرافدين..... ٦٥

أيام في بلاد الشام..... ٧٣

في لبنان..... ٧٧

أيام في الأردن..... ٨١

في فلسطين وصلاة في المسجد الأقصى..... ٨٢

تحية دمشق الفيحاء..... ٨٦

إلى أرض الكنانة..... ٨٧
في مجمع اللغة العربية بالقاهرة..... ٩١
أيام في السودان..... ٩٥
في تونس..... ٩٩
القيروان عبق المجد وذكريات التاريخ..... ١٠٦
في الجزائر..... ١١٣
تحية الجزائر في ملتقى الإبداع الشعري..... ١١٦
في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري.. ١١٩
تلمسان لؤلؤة المغرب العربي..... ١٢٣
في رحاب المغرب..... ١٢٥
تحية مكناس..... ١٣٣
بين تطوان ومراكش..... ١٣٤
رحلة إلى فاس مدينة التاريخ والعلم والآثار..... ١٣٦
ايفران مدينة خضراء في قلب الأطلس المغربي..... ١٤٣
في جامعة فاس..... ١٤٤
أيام في الأندلس..... ١٤٦
في مكتبة الإسكوريال في مدريد..... ١٦١
جامع قرطبة أروع أثر إسلامي في أسبانيا..... ١٦٤
جولة في جبل طارق..... ١٦٩
على ربى جبل طارق..... ١٧٣
ندوات ومؤتمرات شارك فيها المؤلف..... ١٧٦
كتب صدرت للمؤلف..... ١٨١